محمد رسول الله ﷺ

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الثالث عشر

تأليـــف:
فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

منح في ثنايا المحن

كانــت هــذه الفترة من سَــيْر الرســالة مشــحونة بشــدائد المحن، وفوادح البلاء وقف فيها رسول الله ﷺ وحده، يكافح في ســبيل دعوته، وتبليغ رســالته صابرًا محتسـبًا، لا يكل له عــزم، ولا تعيا لــه إرادة، ولا يمل ولا يفتــر، ولا يهاب جموع أعدائه على كثرتهم الهائلة، ولا يبالي طغيان قوتهم الفاجرة، ولا يهتــم بفجــور مقاومتهــم الطاغيــة. ولكنــه عليــه الصلاة والســلام كان نفــاذًا إلى هدفه، لا يكاد يخــرج من محنة حتى يدخــل في بلاء أشــد وأعظــم، ولا يلبث أن يــودع حادثًا حتى تواجهــه أحداث، وقوى الشــر والجبرية الطاغيــة تتابعه أينما حل وحيثما توجه بدعوته، وأصحابه قلة يسومها طغاة المادية الوثنية ســوء العذاب، ويذيقونها شديد الأذى، وهم صابرون محتسبون تأسيًا برسول الله ﷺ في صبره وقوة عزمه، وانتظارًا للفرج من الله في وعده.

وقد اســتنفد المشــركون معهم كل لون من ألوان العذاب، فلــم يصرفهــم ذلك عن دينهــم وعقيدتهم كما اســتنفدوا مع رسول الله ﷺ كل عتو فاجر، وكل حيلة وتهاون، وكل ترغيب وترهيــب، فلم يقعده ذلــك عن المضيّ قُدمًا في نشــر دعوته وتبليــغ رســالته، حتى اســتيأس الطغــاة من عزيمتــه أن تقف

دون غايته، فعمدوا إلى تعويق سـير الرسـالة بنشر الإشاعات الكاذبـة والإرجاف الخبيث، يذيعونه في وفود القبائل العربية الوافـدة علـى مكة لحضـور الموسـم، ولكـن الله تعالى كان لهـم بالمرصـاد، فجعل من تدبير شـرورهم وإفسـادهم خيرًا وإصلاحًا، وعادت الوفود إلى قبائلها وبطونها، وعشائرها في منازلهـم ومواطنهم، ومعهم ذكر من رسـول الله ﷺ وما يدعو إليه مـن الخير والهـدى ومكارم الأخلاق ومحاسـن الشـيم، وإقامة موازين العدل، وإخلاص العبادة لله تعالى وحده.

وسـرى مع ذلك الحديث عناد قريـش وطغيانها إلى الآذان في المواسـم والمحافل التي تجمع جموع الخطباء والشـعراء والتجار والمتحنفين، وتسـربت إليهم الأنباء عن هدي رسول الله ﷺ وسمته، ومقابلة الأذى بالعفو والصفح الجميل.

وسـدت قريش بطغيانها على نفسـها منافذ الإيمان وتقبل الحـق، وعتت عن أمر ربها ورسـالته، وبغت فـي الأرض بغير الحق، فلم يبق لديها مسرب للاهتداء، وأنزل قوله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا

فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(يس: ٨ – ١٠)

وكان هـذا بيانًـا مـن الله تعالـى يعلـن على مسـامع الدنيا أن هـؤلاء الأخابث من طغـاة المادية الوثنية قـد طبع الله على قلوبهم، فلن يهتدوا إذن أبدًا، وختم على سمعهم فلن يسمعوا سـماع هداية ورشـد أبدًا، وطمس على أبصارهم فلن يبصروا دلائـل عظمة الله ووحدانيتـه قائمة في مظاهـر الطبيعة وآياته الكونيـة، وهي تنادي بلسـان حالها قوية قاهـرة، فهم عمي، بكم، صـم، لا يرجعون عن غيهم، وعتو كفرهم. وقد أمر الله تعالى رسـوله ﷺ أن يعرض عنهـم، وأن يتركهم إلى ما أقاموا أنفسـهم له، وما وقفـوا حياتهم عليه من العكـوف على إرادة الدنيـا وحطامها لا يريدون غيرهـا، فهم لا يرغبون في هدى، ولا يريـدون حقًا، ولا يرضون أن يسـود حيـاة الناس عدل ولا أن تتداركهـا رحمـة؛ لأن الدنيا وجمعها كانـت مبلغ علمهم بالحياة، ومنتهى غاياتهم منها، فهم في جهالة جاهلة، ووثنية بليدة، ومادية مظلمة، فقال الله عز شأنه لنبيه ﷺ:

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾

(النجم: ٢٩، ٣٠)

قيـل: نزلـت فـي النضر بـن الحارث، شـيطان الأسـاطير والخرافات، والوليد بن المغيرة طاغية السـحر المأثور، وهي من باب النماذج الممثلة لصور الشر والفساد الركيز في بعض الطبائع البشرية.

توجيه إلهي لسير الدعوة وتبليغ الرسالة

وكان هـذا توجيهًـا لرسـول الله ﷺ إلى الانتقـال بدعوته وتبليـغ رسـالته بعيـدًا عـن عنجهيـة غطارفـة(١) قريش وهم غارقـون في وثنيتهـم الفاجرة التـي يتاجرون بهـا العرب من وراء أسوار التنفج(٢) المسـتكبر، والتعالي العتيّ بأنهم سدنة البيـت الحـرام، ومطعمـو الحـاج. وكان هـذا التوجيه نقطة تحول في سـير الرسالة، انطلقت منه إلى آفاق أرحب من آفاق مكة وقريشـها، وإلى جو أفسـح من جو الطغيان الفاجر الذي كانت تعيشـه قريش في بلدها، فخرج رسـول الله ﷺ يعرض نفسـه ودعوته على الناس في منازلهم ويبلغهم رسالة ربهم في مجتمعات مواسـمهم وأسـواقهم، وقد أصبحوا فـي ذكر منه ﷺ، وذكر من دعوته بما أحدثه طيش ملأ قريش في ترصدهم لقبائـل العرب يحذرونهم منه ومن سـحر كلامـه، وفي الناس عقول، وللعقول وزن لما تسـمع وما ترى، وقد أبى على كثير مـن العقلاء كرم إنسـانيتهم أن يُلغِي عقله مـن أجل صيحات حاقـدة تطلقها حناجر بعض الدعاة إلى الشـيطان من سـفهاء قريـش هنـا وهنـاك، يعيبون بهـا محمدًا ﷺ ويشـوهون بها

(١) غطارفة: الغطريف السيد المتكبر. (المجلة).
(٢) التنفج: تنفج افتخر بما ليس عنده. (المجلة).

دعوته وما جاء به من الهدى والإصلاح، فليسمع العقلاء من محمد ﷺ ثم يحكموا له أو عليه، أما أن يقول الحاقدون من غثاء المادية الوثنية قولًا ثم يطلب إلى الناس من غير إعطائهم فرصة النظر الفاحص، والتدبر الباحث أن يأخذوا هذا القول مقطع الفصل، فهذا ما لا ينبغي للعاقل أن يقبله وأن يأخذ به نفسه.

وقد كان لهذا التوجيه بالخروج بالدعوة إلى مجالها الفسيح ومواجهة العقول بها مواجهة مباشرة، بعيدة عن التأثير التقليدي لمواريث الوثنية المتحمسة في قريش وملأ طغاتها- أثر واسع المدى، عظيم الخطر، وإن كان مختلفًا اختلافًا بعيد الأطراف، ولكنه كان -على ما لقي فيه رسول الله ﷺ وأصحابه من شدة ومحن كانت في بعض صورها أشد وأعنف مما لقوه من قريش في مكة- مليئًا بالخير والتقدم بالدعوة إلى خطواتها القوية الرصينة التي كانت أساسًا لدعائم تكوين المجتمع المسلم، وتحديد خصائصه، وتحصين كيانه، وحماية وجوده.

وكان هذا التوجيه منفذًا من منافذ سريان الدعوة إلى العقول والقلوب اتخذ فيه سير الرسالة سمته إلى تثبيت أقدامها راسخة هادئة في صبر لا ينفد، وعزائم لا تفتر.

قصة الطفيل الدوسي
أثر من آثار هذا التوجيه

قال الإمام محمد بن إسحاق في سيرته: وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش -حين منعه الله منهم- يحذرونه الناس، ومن قدم عليهم من العرب.

كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدِّث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش -وكان الطفيل رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا- فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرَّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه، ولا تسمعن منه شيئًا.

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني كرسفًا[٣] حين غدوت إلى المسجد فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة فقمت منه قريبًا، فأبى الله إلا أن يسمعني

(٣) كرسفًا: قطنًا. (المجلة).

بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكل أبي! والله إني رجل لبيب شاعر، وما يخفى عليَّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يقوله حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلتُ: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا -للذي قالوا- فوالله ما برحوا يخوفونني أمرَك حتى سددتُ أذنيَّ بكرسف؛ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولًا حسنًا، فاعرض عليَّ أمرك، قال: فعرض عليَّ رسولُ الله ﷺ الإسلام، وتلا القرآن عليَّ، فلا والله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه.

آية إعجاز للطفيل مع قومه جمعهم الله بها على الإيمان:

فأسلمتُ وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونًا عليهم، فيما أدعوهم إليه فقال ﷺ: «اللهم اجعل له آية».

قال الطفيل: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت:

اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، فتحوَّل فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتُهم فأصبحت فيهم.

فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخًا كبيرًا، فقلت: إليك عني يا أبتِ، فلستُ منك ولست مني. قال: ولم يا بنيَّ؟ قلت: فإني أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، فقال أبي: أي بني.. فديني دينك، فقلت: فاذهب فاغتسل، وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت فذهب، فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال الطفيل: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلستُ منك، ولستِ مني، قالت: لم؟ بأبي أنت وأمي.. قلت: قد فرَّق الإسلامُ بيني وبينك، وتابعتُ دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قلت لها: اذهبي إلى حمى ذي الشرى فتطهري منه فذهبتْ فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطئوا عليَّ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة فقلت: يا رسول الله.. غلبتني دوس فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد دوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم».

فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين.

الخير ينبت في أرض جدباء فتخصب وتشرق بها شمس الهداية

هذه القصة -التي اتفقت كلمة رواة أحداث السيرة النبوية على حقائقها ومعانيها، ووقائعها فأثبتوا بهذا الوفاق ثبوتها وصحة وقائعها- واحدة من الأحداث التي كانت أثرًا من آثار العتو الوثني الذي ادَّرعه(٤) ملأ قريش وطغاتها في موقفهم من النبي ﷺ وهم يحذرون الناس منه، فجعلهم الله تعالى وهم راغمون كارهون ألسنةَ دعايةٍ ونشر لدعوته وتبليغ رسالته، فانقلب عليهم قصدهم، ورد الله كيدهم في نحورهم.

وكان الطفيل الدوسي واحدًا من أَلِبَّاء العرب وعقلائهم الذين لم يرضوا لأنفسهم الذلة والخنوع لطغيان ملأ قريش إذ تلقفوه في قدماته مكة وهم يعرفونه لبيبًا حكيمًا، ذا مكانة مرموقة في قومه وكلمة مسموعة فيهم، فخافوا عليه وعلى قومه أن تبلغهم دعوة محمد ﷺ وهداية رسالته، وأن يسمعوا شيئًا مما يتنزل عليه من كلام ربه نورًا وهدى للناس ورحمة للعالمين، وهم أعلم الناس بروعة البيان القرآني، وسحر هدايته، وأثرها في العقول والقلوب.

---

(٤) ادَّرعه: من الفعل درع بمعنى التذلل والمبالغة فى السؤال والرغبة (المجلة).

فاستقبلوا الطفيل محذرين، مخوفين، مرجفين بالباطل والزور، واشتدوا في تخويف الطفيل وتحذيره من رسول الله ﷺ، ومن آثار الاستماع إليه، حتى خُدع الرجل في بادئ الرأي عن عقله، وهو يصف ذلك فيقول: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذنيَّ كرسفًا (قطنًا)؛ فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله.

ولكن الخداع المضلل إذا غشَّى بصيرة العقل المستبصر لحظة أو لحظات فسرعان ما ينبلج في آفاقه ضوء الحقيقة مبددًا هذا الغشاء الأسود، ناشرًا نور هدايته، فاتحًا أمام العقل أبواب الرغبة في معرفة حقيقة ما حُذِّره وخُوِّفه ليخبر الأمور بإدراكه ووسائله، لا بإدراك المحذرين المخوفين ويعرف الحقيقة بقلبه لا بقلوب الملقنين.

نور الهداية ينفذ إلى قلب الطفيل فيضيء قلوب قومه:

وثاب الطفيل إلى نفسه، وأفاق من غشيته، وراجعه رشده، وأبى عليه عقله أن يستسلم لنزعة يغلفها الحقد الكفور في قلوب قوم يحاولون تضليل العقول، يصدونهم عن الهدى إذ جاءهم، وأبى الله إلا أن يقذف في عقل هذا الرجل اللبيب الحكيم نور التطلع إلى المعرفة الكريمة المتحررة من ذل التحذير وضعف التخويف، فأسمعه بعض قول رسول الله ﷺ.

قال الطفيل: فسمعته قولًا حسنًا، وهنا تندَّم الطفيل وتحزَّن ولاوم نفسه، كيف وهو الرجل اللبيب الحكيم الذي لا يخفى عليه التمييز بين الحسن والقبيح؟ فما يمنعه أن يسمع من محمد ﷺ ما يقول، ثم يحكم عليه أو له بعد ذلك بما يمليه عليه عقله الحكيم، فإن كان الذي سمع حسنًا قبله ودان به، ولو ورمت آناف الملأ من قريش تغضبًا عليه.

وانتظر الطفيل حتى انتهى رسول الله ﷺ من صلاته وانصرف إلى بيته، فتبعه الطفيل إليه ومعه عقله ولبابته حتى دخل عليه بيته، وحدثه حديث الملأ من طغاة قريش وتحذيرهم إياه من سماع قول رسول الله ﷺ وأن الله تعالى أبى إلا أن يذهب بقولهم وتحذيرهم مع تصاريف الرياح، فتذروه حتى كأن لم يكن شيئًا، وأسمعه الله قول رسول الله ﷺ فسمع قولًا حسنًا، ما سمع قط قولًا أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه.

وطلب الطفيل بعد أن اقتنع عقله، وطابت نفسه، وتنور قلبه من رسول الله ﷺ أن يعرض عليه أمره، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلم الطفيل مكانه، وشهد شهادة الحق، وباءت قريش بالخيبة والخسران المبين، ووقع ما كانت تخافه وتحذره، وانفلت من عقال خداعها الرجل اللبيب الشاعر الذي تُخشى لبابته وشاعريته، وأسلم الطفيل الدوسي الذي

لم يكتف بأن يسلم وحده، ولكنه أراد الخير والهدى لأهله وقومه وهو زعيمهم المطاع فيهم، وأخبر رسول الله ﷺ أنه راجع إلى قومه، وداعيهم إلى الإسلام، وسأل رسول الله ﷺ أن يجعل الله له آية تعينه على قومه فيما يدعوهم إليه من الإيمان بالله ورسوله، ودعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اجعل له آية» فاستجاب الله دعاء نبيه محمد ﷺ، وجعل للطفيل آية نورانية، وبدأ الطفيل إذ حل بين قومه بدعوة أبيه وصاحبته إلى الإسلام، فأسلما وعلمهما شرائع الدين التي عُلِّمها، ثم عمد إلى قومه وعشيرته فدعاهم إلى الإسلام فأبطئوا عليه، ورجع إلى رسول الله ﷺ بمكة، يشكو إليه غلبة قومه له وعدم استجابتهم لدعوته، وطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، ولكن رسول الله ﷺ -وهو المرسل رحمة للعالمين وهو الرءوف الرحيم، وهو الرحمة المهداة إلى الحياة- أجاب الطفيل بغير ما يترقب، فدعا لقومه دوسٍ أن يهديهم الله، وقال: «اللهم اهد دوسًا» ولم يدع عليهم بهلاك يدمرهم أو عذاب ينزل بهم لإبطائهم في إجابة الداعي إلى الله، ثم أوصى الطفيل بأخص خصائص الدعاة إلى الله وما يجب عليهم أن يتخلقوا به في حملهم راية الدعوة وتبليغ الرسالة، ذلك هو الرفق بعباد الله والشفقة على خلق الله، والرأفة بهم، والرحمة

لهم، فقال له: «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم». ورجع الطفيل إلى قومه بوصية رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وإلى دينه، وكان بهم رفيقًا، فأجابوه، قضهم وقضيضهم، رجالهم ونساؤهم، كبارهم وصغارهم، وأسلموا، ثم هاجروا، وأدركوا رسول الله ﷺ وقد فرغ من فتح خيبر.

وبهذا كانت دوس وزعيمها الطفيل كتيبة من كتائب الإسلام التي شاركت في هزيمة المادية الوثنية هزيمة منكرة، ونشرت راية التوحيد، وكسرت قناة الطغيان في ملأ قريش كسرة لم تقم لهم بعدها قائمة، وطهرت البلد الحرام من رجس طغيانهم، وتعطَّف الله تعالى فأخرج من أصلابهم بطولات الدعوة والهداية والفتح المبين، وهكذا يخرج الله الحي من الميت وهو على كل شيء قدير.

مضاء عزيمة رسول الله وصبره كانا أعظم عوامل نشر دعوته

هذا نموذج من سياسة الحكمة التي انتهجها رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته ونشر دعوته بعزيمة لا تعرف التردد في الأمور، وصبر يحتمل ما لا تحتمل شم الراسيات، أوذي ويؤذى فصبر، ويصبر على أذى السفهاء من غوغاء قريش، وسيم بالبلاء من ملئهـا فلم تفل له عزيمة، ومضى قدمًا في عزيمة ماضية وصبر صبور، فكان ذلك من أعظم عوامل نشر الدعوة بين مجتمعات العرب في مواسمهم وأسواقهم ومنازلهم.

وكان هذا الصبر قوة تدفع بالدعوة إلى آفاق أوسع وأفسح من آفاق مكة وقريشها، وكأنما كان هذا الصبر المكافح يحمل الدعوة إلى الله في أشد أزماتها على أجنحة النصر المؤزر على رغم قوى الشر المؤلبة لمقاومتها.

وكان هذا الصبر الصبور مددًا من القوة لا ينفد، يمد الدعوة بقوة العزائم التي تنهض بها لتبلغ غايتها من العقول والقلوب في غير عجلة متسرعة.

وكان هـذا الصبـر الجميـل يزيد قريشًـا طغيانًـا وكفرًا، وعتـوًا وعنادًا، ويضاعـف من أحقاد ملأ الطغـاة واضطغانهم على رسـول الله ﷺ، وعلى أصحابه، ولكنه كان يزيد في قوة إيمان المؤمنين، ويشجع رسول الله ﷺ على الخروج بدعوته

من حصار مكة وأهلها وعشـائرها التي تقودها الوثنية المادية العمياء بزمام العتو الكفور.

روى ابـن سـيد الناس في عيون الأثر بسـنده عـن جابر بن عبـدالله قـال: كان النبـي ﷺ يعـرض نفسـه علـى الناس في الموقـف ويقـول: «ألا رجـل يعرض علـي قومه؟ فإن قريشًـا منعوني أن أبلغ كلام ربي».

وفـي حديـث محمد بن المنكدر أنه سـمع ربيعـة بن عباد الدؤلـي يقـول: رأيت رسـول الله ﷺ يطوف علـى الناس قبل أن يهاجـر إلى المدينة يقـول: «يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشـركوا به شيئًا» ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فسألت من هذا الرجل؟ فقيل: أبو لهب.

وقـد لقي رسـول الله ﷺ كثيـرًا من وفود العرب، ورؤسـاء قبائلهم، وزعماء بطونهم وعشائرهم، فدعاهم إلى توحيد الله تعالـى، وإخلاص العبادة له وحـده، فكانوا بين مقارب مهذب الطبـع ليـن المقادة، سـهل المأخـذ، حكيم اللسـان، عقول القلـب. وبين بعيـد مجانب، جواظ(٥) جـاف، غليظ الطبع، ضيق العطن(٦)، عسر المسلك، سريع التغضب، نفور جهول.

(٥) جواظ: المتكبر الجافي (المجلة).

(٦) العطن للإبل كالوطن للناس وهي كناية عن ضيق الأفق وسوء الخلق (المجلة).

حوار عقول:

وكان ﷺ يصابـر القوم، ويصبـر على جفوة الجفاة منهم، ويقـدر المهذبين منهم قدرهم، ويعرف لهم مكانتهم، ولو لم يجيبوه إلى دعوته تشرعًا بمكارم الأخلاق.

وكان كثيـرا ما يصحبه في لقاءاته وفود العرب في منازلهم من الموسـم أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهمـا-، ففي حديـث عبدالله بن عباس عنـد صاحب العيون وغيـره من رواية ابن إسـحاق عن علي أنه خـرج هو وأبو بكر -رضـي الله عنهمـا مـع رسـول الله ﷺ ليعرض نفسـه ويبلغ رسـالته إلى الناس في منازلهم، وقد لقوا قومًا من وجوه العرب ورؤسـاء عشائرهم فجلسوا إليهم، قال علي -رضي الله عنه-: وكان أبـو بكـر في كل خيـر مقدمًا، وتكلم أبـو بكر -وكان نسـيج وحده في معرفة أنسـاب العرب وشـمائلهم- وسأل: ممن القوم؟ فقالوا: من شـيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي.. هؤلاء غرر في قومهم، وفيهم مفروق بين عمرو قد غلبهم جمالًا ولسـانًا، وكانت له غديرتـان، وكان أدنى القوم مجلسًـا من أبـي بكر -رضي الله عنـه-، فقال له أبو بكر -رضي الله عنه-: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة،

فقـال أبو بكـر -رضي الله عنـه-: كيف المنعـة فيكم؟ فقال مفـروق: علينا الجهد، ولكل قوم جد، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى، وإنا لأشـد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسـلاح على اللقاح، والنصر من عنـد الله، يديلنا مرة، ويديـل علينا أخرى، لعلك أخو قريش. فقال أبو بكر: أوقد بلغكم أنه رسول الله؟ فهاهو ذا.

فقـال مفـروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فـإلام تدعو يا أخا قريش؟

فتقدم رسول الله ﷺ فقال: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأني رسول الله، وأن تأووني وتنصروني، فإن قريشًـا قد تظاهرت على أمر الله وكذَّبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد».

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فقال رسـول الله ﷺ:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٩٠)

فقال مفروق: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك.

أدب العشرة في تضافر الزعامات العاقلة:

وكأن مفروقًا أراد أن يشرك في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: هذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعنا مقالتك، يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلستَه إلينا، ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر.

وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى بن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر وإنما نزلنا بين صيري اليمامة والسماوة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما هذان الصيران؟» فقال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا، ولا نئوي محدثًا، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هو مما يكرهه الملوك، فإن أحببت أن نئويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم في الصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟».

فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا، فتلا رسول الله ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

ثم نهض رسول الله ﷺ، قال علي: فأخذ بيدي، فقال: «يا أبا بكر.. يا أبا حسن. أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية؟ ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم».

بين رياض هذه القصة وحوارها آيات من العبر:

هذه القصة من غرر أحداث السيرة النبوية في مرحلة الكفاح الصبور والصبر المكافح؛ لأنها في إطارها الواقعي تصور خطوات من سير الرسالة، وهي في طريقها إلى الإعلان عن نفسها وأهدافها بين وفود العرب القادمين على مكة لحضور الموسم، بعد أن سبقها ذكرها إلى الناس بما أتته قريش من طيش أحمق ورعونة بلهاء في ترصدها القادمين أفرادًا وجماعات، تحذرهم رسول الله ﷺ أن يسمعوا منه، أو يكلموه، خشية أن يجتذبهم حديثه إلى متابعته والإيمان بدعوته، وتصديق رسالته.

وكأنما كان ذلك الطيش الأرعن الذي تورط فيه ملأ قريش بشؤم مشورة طاغيتهم الوليد بن المغيرة، وشيطانهم اللعين: النضر بن الحارث، وغميز الرجولية، فرعون هذه الأمة أبي جهل بن هشام – إيذانا من الله تعالى أن تنطلق دعوة محمد ﷺ من حصار قريش، فتطرق أبواب العقول والقلوب على رغم

أنف العتو العنيد الذي سيطر على عقلية ملأ قريش وطغاتها من أحلاس المادية الوثنية.

وقد حاولوا بكل ما يملكون من قوى مادية شريرة، وفجور دعائي عاتٍ عنيد أن يعوقوا سير الرسالة ويوقفوا مد انسياح الدعوة إلى الله تعالى، وسلكوا في سبيل ذلك كل طريق استطاعوا أن يسلكوه، ولم يتركوا أمرًا تخيلوه عائقًا يمكن أن يصد دعوة محمد ﷺ ويرد تيارها عن زحفه مزمجرًا بقوة الحق وقهره إلا أتوه وفعلوه.

ولكن محمدًا ﷺ وقد حمَّله الله تعالى مصباح الهداية مضيئًا، ينير له الطريق، ويكشف له مسالك السير برسالته قدمًا لم يزل دءوبًا –وهو منفرد وحيد، يجول في ميدان الكفاح وحده في قلة مستظلمة مستضعفة من أصحابه آمنوا به وبدعوته على خوف من بطش قومهم وجبروتهم – على نشر دعوته إلى توحيد الله ودينه القويم، يدعو إليه كل من لقيه ويلقاه من الناس في أي مكان وزمان ومجتمع.

ولما استيأس رسول الله ﷺ من قومه بعد أن بذل في سبيل هدايتهم كل جهد، فصبر على أذيتهم، وصابرهم، وحاسنهم، وأغضى على سفاهة سفهائهم، وفجور طغاتهم –خرج في أيام الموسم ومعه صاحبه وصديقه أبو بكر، وربيبه، رضيع ثدي النبوة علي بن أبي طالب –رضي الله عنهما–، يعرض نفسه ودعوته إلى التوحيد والعدل على الناس، ويدعوهم إلى

الإيمان به وإلى أن يئووه، وينصروه على ظلم قريش وافترائها الكـذب على الله، وتظاهرها على رسـوله وهـو قائم بأمر الله، ينشر دعوته، ويبلغ رسالته، فأفكت عليه وكذبته، واستغنت بالباطـل من الكفـر الفاجر، والوثنية الماديـة البليدة الظالمة المظلمـة، وطرحـت الحق وراءهـا ظهريًا ولـم ترفع له رأسًـا، وأقامـت على عتوها وعنادها تتربص برسـول الله ﷺ الدوائر وتمكر به وبأصحابه وتؤذيه وتوذيهم أبشع الإيذاء، متفننة في الإساءة إليهم وتعذيبهم، وهم صابرون محتسبون.

ولقـي رسـول الله ﷺ فيمن لقي من وفود الموسـم وزعماء القبائل ورؤسـاء العشـائر هؤلاء الغر البهاليل(٧) من شيبان بن ثعلبـة، الذيـن يصفهم الصديـق أبو بكر -وهـو أعرف العرب بأنسـاب العرب وشـمائلهم- فيقول وقد التفت إلى رسول الله ﷺ بعد أن استخبرهم فانتسبوا له: هؤلاء غرر في قومهم، وهذا التعبير فـي صدقه ودقته مليء بالصور التي تسـترعي الانتباه، فهـو لم يقـل: غرر قومهم، تحفظًا أن يوغر صدر من عسـى أن يكون في مستواهم أو أرفع قدرًا منهم ولم يشهد مشهدهم.

وهـو بهذا الأسـلوب البارع قـد أدى حق الروعـة البيانية التي تفتح قلوب هؤلاء الغر لما يرد عليهم من أحاديث الهداية والحق

(٧) البهاليل: الكرام أصحاب الشمائل (المجلة).

والعدل ومكارم الأخلاق، ولا توصد باب النظر دون غيرهم.

وكان مقـدم القـوم مفروق بـن عمرو، وهانئ بـن قبيصة، والمثنـى بن حارثة، والنعمان بن شـريك، وبدأ أبو بكر فأدار الحديث مع مفروق بن عمرو؛ لغلبته على القوم جمالًا وبيانًا، وكان أدنى القوم مجلسًـا من أبي بكر، ورسول الله ﷺ يصغي ويسـمع، ولا يتكلم، وقرناء مفروق في زعامة قومهم في تنبه يقظ يسمعون.

وسـأل أبو بكر مفروقًا عن عدد قومه، وهو لا يريد بالطبع إحصـاءً عدديًا لهم، ولكنه يريد أن يتعـرف على مصدر القوة فيهم وفي حروبهم ليسـمع رسـول الله ﷺ حتى يعلم علم ما إليه قصد من منعة وحماية ونصرة وإيواء.

ومـن البداهـة أن مصدر القوة لتحقيق هـذا الهدف إنما هم الرجال الأشـداء، ذوو البأس والقوة وصدق اللقاء في معمعان الوغى ومواقع النضال.

وأجاب مفـروق بأن عدد المنعة والحميـة فيهم يزيد على الألـف -ولـن يغلب الألـف من قلـة- وكان لعـدد الألف عند العـرب روعة في التزيد بـه والتكثر، وهذا مـا كانت بيئاتهم تقتضيـه، فهم لم تكن لهم حـروب عامة جامعة، وإنما كانت حروبهم جزئية محصورة متكافئة الأعداد.

وسأل أبو بكر –رضي الله عنه– مفروقًا عن المنعة والحمية فيهم ليعرف مقدار حرصهم على غيرة الجوار وحماية البيضة وحفظ الذمار.

فأجاب مفروق جواب الرجل العاقل الذي لا يستفزه الغرور الأهوج، ولا يتوثبه الطيش الأرعن، ولا تملكه الكبرياء الحمقاء، فلم يندفع إلى التكذب والادعاء لما ليس هو بكائن عنده وعند قومه، فقال: علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد وصبر، وإذا كان لكل قوم جد يدَّرعونه في مواقفهم، فلنا جدنا في جهدنا وصبرنا.

وسأل أبو بكر –رضي الله عنه– مفروقًا عن الحرب بينهم وبين عدوهم؛ ليستبين خصيصة قومه في لقائهم عدوهم، فوصف مفروق قومه وصفًا من أبدع ما يوصف به قوم في ميدان البطولة والشجاعة التي لا تتهور، ولا تتقاعس، ولكنها بطولة جد ساعة الجد، فتربو على أمدها في توجيه رحى الحرب إلى مصافهم في مصاف الأبطال.

فهم غضاب أشد ما يكون الغضب إذا لاقوا عدوهم، والغضب شعلة من النار، وهم أشد ما يكونون اندفاعًا إلى اللقاء حين يغضبون، فلا يقوم لهم عدو، ولا يهزمون وهم سالمون، وزاد مفروق في وصف قومه وصفًا يعرف به أنهم قوم يحبون الوغى في حومته، وأنهم يستعذبون الاقتحام فيه

وتقبيل السيوف عند اللقاء، نشأة عليها نشئوا، وتربية بها تربوا، يحبون السلاح والجياد أكثر من حبهم أفلاذ الأكباد.

وكان مفروق رجلًا عاقلًا رزينًا، لا تستفزه رعونة الزعامة في قومه، ولا يغره شرف محتده[٨]، بل يعلن أن النصر من عند الله، لا يجلبه قوة ولا شجاعة، ولا تجربة، وهو إلى أصحاب الجهد الصبور أقرب منه إلى أصحاب القوة الرعناء، والله تعالى يداول بين الناس، فيوم لك ويوم عليك، يديلنا مرة فينصرنا، ويديل علينا مرة أخرى، فينصر عدونا علينا، سنة الله في خلقه.

ثم التفت مفروق إلى أبي بكر بعد أن أنهى حديثه معه، وقال له: لعلك أخو قريش؟ يعني رسول الله ﷺ، ولم يكن مفروق قد سبق له أن عرف رسول الله ﷺ قبل هذا المجلس، ولكن مفروقًا بدر أبا بكر بهذا التوقع لما كان قد بلغه من ذكر رسول الله ﷺ وذكر دعوته ورسالته.

وهنا تتجلى براعة أبي بكر –رضي الله عنه– في استرعاء الأنظار إلى التعرف على رسول الله ﷺ تعرفًا يمكِّن له في القلوب والأبصار، حتى إذا أجرى الحديث معه جرى في واديه وقصده إذ يتولاه صاحب دعوته، فقال أبو بكر –رضي الله

(٨) محتده: أصله ومنبته ونسبه. (المجلة).

عنـه- ليؤكد هذا التعرف، ويوجه الأسـماع إلى الهدف الذي كان له هذا اللقاء، فقال: أوقد بلغكم أنه رسول الله؟ فهاهو ذا مشيرًا إلى رسول الله ﷺ.

فقـال مفروق: قـد بلغنا أنه يذكر ذلك. وفـي هذه الجملة يتجلى صـدق اليقين، وأدب النفس ورصانـة العقل، وامتلاك زمـام الأمر؛ لأن أبا بكر -رضي الله عنه- إذ قال: «أوقد بلغكم أنه رسـول الله». كان يتكلم بمنطق الإيمان الذي وقر في قلبه برسالة محمد ﷺ.

أمـا مفروق بن عمرو إذ قـال: «قد بلغنا أنـه يذكر ذلك»، فإنمـا كان يتكلم بمنطق عقله وأدبه، فهو لم يؤمِّن على كلام أبي بكر بأنهم بلغهم أن محمدًا رسول الله، ولم ينف ما بلغهم مـن رسـالته، ولم يصف رسـول الله ﷺ بما يخـدش ذكره أنه رسـول الله ﷺ، ولكنـه قـارب الصدق مع نفسـه فقـال: «قد بلغنا أنه يذكر ذلك»، وهذا لا يدخل مفروقًا في ساحة الإيمان برسالة محمد ولا يخرجه من ساحة صدق الإخبار.

ثم أخذ مفروق في استكشاف حقيقة ما بلغه عن رسول الله ﷺ من ذكره أنه رسـول الله، أرسله ليدعو الناس إلى توحيده، وخلع الأنداد والشركاء، بعد أن عرف شخص رسول الله ﷺ، فقال: إلى أي شـيء تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسـول الله ﷺ

ليأخذ بزمام الحوار الذي وصل إلى جوهره وغايته، فقال ﷺ: «أدعـو إلى شـهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شـريك له، وأني رسول الله، وأن تئووني وتنصروني».

وهـذا تصديق وتأكيد لقول مفـروق: قد بلغنا أنه يذكر أنه رسـول الله، وهاهو ذا ﷺ يذكر على سـمع القـوم وبصرهم، بل على سـمع الدنيا وبصرها أنه رسـول الله، ولكن الظالمين جحدوا آية الله في رسـالته، فكذبـوه، وتظاهروا على أمر الله، واستغنوا بالباطل عن الحق.

وهذا هو ما دعا إليه قومه، لم يدعهم إلى شـيء غيره، وهو ما دعا إليه الناس جميعًا، هي كلمة إذا قالوها سعدوا وأفلحوا، فهو ﷺ لم يطلب بدعوته مالاً وثراءً، ولا شرفًا ولا سيادةً ولا ملكًا وسلطانًا، ولكن الظالمين تظاهروا على أمر الله، فكذبوا رسوله إذ دعاهم إلى توحيد خالقهم، فقالوا:

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾

(ص: ٥)

أيهما العجاب؟! أمركم الذي تعبدون فيه آلهة شتى، أم أمر محمد ﷺ الذي يدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد؟!

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(يوسف: ٣٩)

ورسـالة الله دعوة إلى الحق، لا تقف إذا نوهضت من أعداء الحق، ولا تسـتكين إذا حوصرت، بل يجب على الرسـول أن يبحث لرسالته عن أرض خصبة التربة، ليحرثها بدعوته، ومن الله تعالى الإنبات والزرع.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾

(الواقعة: ٦٣، ٦٤)

وهكـذا كان هذا اللقاء بحثًا عـن التربة الخصبة التي تأوي الرسول ﷺ، وتنصر الرسالة إذا آمنت واهتدت.

وسـمع مفـروق وصحبه من رسـول الله ﷺ الأسـاس الذي قامت عليه دعائم دعوته، وسـمعوا الأسـاس الذي له خرج من بلده، وعن قومـه ليلقى الناس به في منازلهم، ليجد من يؤويه وينصـره على من ظلمه وكذبه وتظاهر على أمر الله واسـتغنى بالباطل عن الحق.

وكأن مفروقًـا وصحبـه في بـلادة وثنيتهم لـم تهزهم هذه الدعـوة إلى توحيـد الله تعالى، فلم يرد متحدثهـم على دعوة الإيواء والنصرة، ولكن مفروقًا انطلق يسـأل ويستكشـف ما وراء هـذه الدعوة التوحيدية التي تخلعهم من وثنيتهم، فقال: وإلى أي شيء آخر تدعو يا أخا قريش؟

فانتقل به رسول الله ﷺ وبالحديث والحوار، وبمن يسمع

من الشـاهدين إلى أمر جامع بين دعـوة التوحيد، والأمر بعُليا الفضائـل ومواطن الإحسـان، وإلى النهي عن أصـول الرذائل والشرور في المجتمع، فتلا عليه رسول الله ﷺ قول الله تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

وظل مفـروق وصحبه على موقفهم مع وثنيتهم وتقاليدهم الجاهلية جامدين، لا تهتز مشاعرهم، ولا تتحرك عواطفهم.

وانتقل مفروق يسـتزيد من أمور دعوة رسـول الله ﷺ، فقال يسـأل: وإلى أي شـيء -أيضًا- تدعو يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٩٠)

وهنـا -فقط- اهتـزت أريحية كرم النحيـزة[٩] في الرجل، وثـارت عواطفه وتحرك وجدانه وتأثرت مشـاعره اسـتطعامًا لمعانـي الآية الكريمة، وتذوقًا لمكارمهـا وآدابها، فقال وهو منفعل بأثر ما مس قلبـه: دعوت -والله- إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد كذَّب قوم كذَّبوك وظاهروا عليك.

(٩) النحيزة: الطبيعة، كرم النحيزة، أي كرم الطبع. (المجلة).

ولكن هذا الانفعال بمعنى الآية شيء والإيمان بالرسالة شيء آخر ؛ لأن الإيمان بالرسالة يعتمد على إسلام الوجه لله -تعالى- ، والإذعان المطلق لأمره ونهيه والدخول في ساحة طاعته دخولًا لا يخالجه شك ، ولا تردد ، ولا يحتاج إلى مشورة أحد ، ولا إلى استئذان أحد .

وموقف مفروق بن عمرو إلى هنا موقف تكرم مع نفسه ، وأدب خلقي مع حياته ، بيد أنه لا يرقى إلى آفاق الإيمان بالله ورسالاته ؛ ولذلك التفت إلى صحبه وقرنائه في زعامته ، وبدأ بصاحب دينهم وسادن وثنيتهم : هانئ بن قبيصة ؛ لأن الأمر في هذا الحوار كان أمر دين ودعوة إلى رسالة إلهية ، جاءت إلى الناس بدين جديد ، يقتضيهم إذا آمنوا به أن يتركوا دينهم الذي هم عليه والذي تقلدوه وراثة عن آبائهم ، فكان لا بد من مشاركة صاحب دينهم في الحوار والحديث ؛ ليعرف رأيه فيما سمع من صاحب الدعوة الجديدة الذي سمعوا أنه يذكر عن نفسه أنه رسول الله ، وأنهم سمعوه في هذا المجلس يدعو إلى جانب توحيد الله -تعالى- أنه رسول الله ، وهاهم أولاء يرون رأي العين والقلب فيه وفي سمته وفيما يدعو إليه جديدًا كل الجدة على ما اعتنقوه من وثنية بليدة مظلمة ، وعلى ما ألفوه

وعرفوه في الناس من أخلاق وشيم ، فما عسى أن يكون رأي صاحب دينهم فيما رأى وفيما سمع ؟

فليتكلم هانئ بن قبيصة شيخ شيبان في سنّه ، وصاحب دينهم في معرفته وعلمه بتقاليد جاهليتهم وشدة حرصهم على التمسك بوثنيتهم ، وقد قدمه مفروق إلى النبي ﷺ فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا ، ولعل مفروق بن عمرو أراد مع ذلك أن يستبين أثر ما جرى من الحوار بينه وبين رسول الله ﷺ في أنفس قرنائه في زعامة قومه ، ولعله كان يطوي بين جوانحه شيئًا من الرضا بالدعوة الجديدة والدين الجديد ، ولم يكن وهو مغلَّل بسلاسل الوثنية والزعامة يستطيع أن يبوح جهرة بمكنون سره ، فأراد أن يعرف ما اختلج في أنفس أصحابه دون أن ينفرد بخلافهم .

وتكلم هانئ بن قبيصة ، وكان عاقلًا ، متأنيًا ، متزنًا ، حكيمًا ، أحكمته التجارب ، فقال : إن تركهم دينهم الذي نهدوا في ظله ، وشبوا على تقاليده ، وشابوا عليه ، إلى دين جديد ، مهما يكن شأن ما جاء به من مكارم الأخلاق ومحاسن العمل لمجرد مجلس جلسه إليهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم دعوته ، وأبان عن شمائلها ، وفضائل أصولها ومحاسن آدابها لم تكن له مقدمات ممهدات ولا كانت له نهاية ينتهي

إليها، وإنما كان أشبه بمجلس تعارف وتلاق، جمعتهم فيه برسول الله ﷺ المصادفة التي لم يكونوا هم يقصدونها، وقد سمعوا منه وسمع منهم، وقالوا وقيل لهم، وعرفوا وعرف منهم، ولم يكن ذلك بكاف -في نظرهم- لبت الحكم في أمر قد يكون من أخطر أمور حياتهم وحياة قومهم يرونه زلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة، والأمر أكبر من أن يؤخذ بالسرعة لاحتياجه إلى أناة وريث وتلبث ونظر، تقلب فيه وجوه الرأي ويجول في أنحائه العقل جولات توزن فيها الأمور بأشباهها، وتقاس المنافع بالمضار، وإنما تكون الزلة مع العجلة.

ثم بين هانئ أن هذا الأمر لعظم خطره لا يعنيهم وحدهم، ولا يخصهم من بين قومهم، بل هو أمرهم وأمر قومهم من ورائهم، والزعامة العادلة هي التي لا تفتات على الجمهرة فيما يعنيها من الأحداث في حياتها، ولا تستبد في تقرير مصير من قلدوهم قلائد زعامتهم.

ولعل هانئ بن قبيصة أراد أن يعطي رسول الله ﷺ صورة تمثل زعامتهم لقومهم، وأنهم إن كانوا مطاعين فيهم، ولكنهم لا يفتاتون عليهم فيما يعمهم؛ ولذلك قال: ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا، لم يشهدوه ولم يبدوا فيه رأيًا؛ لأن ذلك من المفاسد الاجتماعية التي تشتت جمع

الجماعة، وتفرق شملها، وتبدد وحدتها، وتفتأ روابط الزعامة، وتحل عقدتها.

وكان هانئ كما كان صاحبه مفروقٌ وقافًا مع وثنيته لم يقارب الإيمان بالدين الجديد، ولم يشرد منه، وسكت عن «لا» و«نعم»، ولكنه أخذ لنفسه الحيطة وأعطى لرسول الله ﷺ النصف في عرف تقاليدهم الجاهلية، وهو في هذا العرف لا تثريب عليه؛ لأنه رجل ما يزال سابحًا في غمرة زعامته الوثنية، فقال: ولكنا نرجع إلى مستقرنا بين قومنا، ومستودع أسرارنا في ديارنا، وننظر فيما سمعنا منذ اليوم، وينظر معنا قومنا، ويرجع رسول الله ﷺ إلى رأيه في عرض دعوته وتبليغ رسالته إلى كل من يلقاه من الناس أداء لموجبات القيام بحق التبليغ وينظر فيما سمع منا، فلعل الله يجعل له منا ردءًا يصدقه ويجمع بيننا وبينه في ظل رأي قد غب واستوى، والله من وراء ذلك بحكمته وعلمه وتدبيره.

ولم ينس هانئ -وهو حكيم القوم، وصاحب دينهم- أن النبي ﷺ ذكر أنه يدعوهم إلى أن يئووه وينصروه؛ لأن قريشًا قومه وقفت منه موقف العداوة العنيدة، فلا يمكن أن ترضى بغير حرب مبيرة لمن يؤوي محمدًا وينصره عليهم، فكان لا بد من سماع رأي القوة الحربية ممثلة في شخص قائدهم

وصاحب حربهم، وحامل لواء كتائبهم في معاركهم، فليشركه في الرأي المثنى بن حارثة شيخهم وصاحب حربهم.

وتكلم المثنى -وقادةُ الحروب من أقل الناس كلامًا في غير اختصاصهم- ولذلك أمَّن المثني على كلام هانئ، ولكنه زاد على كلام هانئ عرض ما يخصه في معرفته تقدير القوة الحربية التي يخشونها إذا أجابوا دعوة رسول الله ﷺ أن يئووه وينصروه، وبيَّن المثنى أن منازل قومه تقع بين أنهار كسرى ومياه العرب، وأن أنهار كسرى لا سبيل إلى اقتحامها والاعتداء على حرمتها وكسر حدودها، فذلك إذا وقع كان ذنبًا لا يغفر، ولا يقبل فيه عذر لمعتذر، وأما مياه العرب فأمرها سهل، وذنبها مغفور، وعذرها مقبول، والقوة عليها مقدورة.

ثم بيَّن المثنى السبب في صعوبة أمر أنهار كسرى، وأنها جاءت من قبل الوفاء بالعهد والمحافظة على زمام العقد، فهم قد نزلوا منازلهم على عهد أخذه عليهم كسرى: أن لا يحدثوا حدثًا وأن لا يئووا محدثًا، والعرب من أوفى الأمم بعهد، وأحفظهم لحرمة عقد، وأبعدهم عن الخيانة والغدر.

ثم بين المثنى أن دعوة رسول الله ﷺ بما قامت عليه من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده، وخلع الشرك

والوثنية بكافة ضروبهما وسائر ألوانهما، وإقامة موازين العدل والمساواة بين أبناء البشر في أرجاء الأرض وأقطارها- أمر يكرهه الملوك وخاصة الأكاسرة الذين كانوا يستعبدون شعوبهم استعباد عبودية، يتألهون بها عليهم، فكسرى كان في قومه معبودًا من دون الله تعالى، وكان ملكه قائمًا على الاستبداد المطلق.

والعرب ولا سيما المصاقبون للفرس يعلمون ذلك ويعلمون شدة حرص الأكاسرة على ملكهم في صورته الاجتماعية القائمة التي خضع لها شعبهم، وارتضاها حياة لهم، حتى أخرجهم الإسلام من ضيقها إلى سعة عدل الله ورحمته.

وقد حفظ تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ صورة من هذا الفجور الاستعبادي، وذلك حينما كتب النبي ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام فيمن كتب إليهم من ملوك الأرض، فكبر على كسرى أن يقوم لله تعالى قائم من العرب يدعو إلى توحيده ويأتي بدين جديد، يجعل هذا المستكبر على أسوة مع سائر البشر في المساواة والعدالة، فمزق كتاب النبي ﷺ وتغضب وثار وانتفخت أوداج الكبرياء فيه، وزمجر، وهدر وأرعد وأزبد، وبلغ النبي ﷺ موقفه هذا فدعا عليه أن يمزق الله ملكه، فكان أن سطا عليه ولده فقتله، ومزق الله

ملك كسرى، وصارت فارس ملكًا إسلاميًا، يحمل راية العلم الإسلامي والمعرفة الإسلامية، والدعوة إلى الله تعالى.

والكلام الذي ذكره المثنى في صدد أنهار كسراها وتهيبهم لها يقصد به في صراحة لا تعرف الالتواء والمواربة، وهي خلق يغلب على القادة الحربيين، بعد أن مهد له بوجوب المحافظة على العهد أن قوتهم لا تستطيع أن تقف أمام قوة كسرى في جبروته، والعهد الذي بينه وبين جيرانه العرب، يعطيه حق أخذ من تحدثه نفسه بالاعتداء على أنهاره وما وراءها من أرض كسروية.

وكأن هذا جاء اعتذارًا قدمه المثنى صاحب حرب شيبان وقائدهم عن عدم إمكان إيواء محمد ﷺ وحمايته ونصرته على كسرى وقومه فيما يقع على حدود أنهاره وبلاده.

أما إذا كان الأمر خاصًا بمياه العرب فهم قادرون على حمايته في دائرتها، وهم على أكمل استعداد لإيوائه في ديارهم، وحمايته، ونصرته على من يناوئه من كافة العرب، قريش فمن سواها.

وهنا موقف للنبوة، يصور عظمتها، ويصور قوة إيمان الرسول ﷺ برسالته، التي لا تتوقف عند حد أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، أو جنس من الأجناس، أو طائفة من البشر، أو نظام من النظم الاجتماعية في أي شكل من شكول الحكم،

فذلك كله يجب أن يدخل في دائرة رسالة محمد ﷺ فيجب أن تكون في سيرها منطلقة في وجوه الأرض تنشر دعوتها مهما كانت العقبات التي تتكاءدها في طريقها، ومهما تكن قوة العتو والجبروت التي تحاول تعويقها عن أهدافها.

ولهذا لما بيَّن المثنى بن حارثة صاحب حرب شيبان أنه لا سبيل إلى القدرة على اقتحام أنهار كسرى، وحماية من يتخطاها بأية دعوة -ولا سيما إذا كانت دعوة يكرهها الملوك، وفي طليعتهم الأكاسرة كدعوة رسول الله ﷺ فإن حماية شيبان إذا آووه إلى ديارهم تكون حماية جزئية خاصة بمياه العرب- تجلت عظمة النبوة وتعاظم جلال الرسالة، وترجم إيمان الرسول برسالة نفسه عن قوته ونفاذ عزيمته، وهذا الإيمان هو المعجزة العملية الخالدة لتبليغ الرسالة بلاغا كاملا واضحا، والسير بها إلى غايتها، لتخرج الناس من ظلمات الجهالة والاستعباد إلى نور العلم وحرية العقيدة والعمل في الحياة.

وقد كان بيان المثنى صريحا، متعقلًا، مقدرا للموقف من وجهة نظرهم، فكان صورة صادقة في صورته المعبرة عن صدق القصد، بأنه وقومه لا يستطيعون إيواء رسول الله ﷺ وحمايته ونصرته على كسرى، وهو -كما يعلمون- في قوته

الحربية الهائلة، لكنهم قادرون على حمايته ونصرته مما يلي مياه العرب، وهذه حماية جزئية لا سلطان لها إلا على أضعف جوانب الحماية والنصرة.

ودعوة محمد ﷺ ورسالته دين الله الذي يعم أقطار الأرض في شرقها وغربها، ويعم جميع الأمم والشعوب والأجناس البشرية وممالكهم ودولهم، ويعم مقاومة القوى التي تقف في سبيل نشر الدعوة، مهما كانت، وكيفما كانت، ولا يمكن أن تتحقق نصرة دين الله وهو بهذا العموم إلا بحياطة عامة شاملة، لا تهاب أعظم القوى، ولا ترهب سلطانا لأحد في الأرض غير سلطان الله تعالى.

ولهذا جاء رد رسول الله ﷺ على المثنى ردا جميلًا حازمًا، مقدرًا للقوم صدق صراحتهم، وهم يعلمون موقفه في وحدته، والتماس الإيواء والنصرة أينما وجد لها سبيلًا، فقد حدد ﷺ في رده مهمة من ينبري لنصرة دين الله، وأنها يجب أن تكون عامة شاملة قوية قاهرة، لا تهاب قوة من قوى الأرض والبشر.

فالنبي ﷺ قدر للقوم إحسانهم في أسلوب حوارهم معه، وردهم عليه، وبين لهم أن جهدهم الجزئي في نصرة دين الله تعالى لن ينصره في دعوته وتبليغ رسالته؛ لأن دين الله في عمومه وخلوده وقوة سلطانه، وما جاء به من توحيد الله تعالى،

وإخلاص العبودية له، وطرح عبادة المخلوقين كيفما كانوا، لن ينصره نصرًا يحقق له أهدافه إلا من حاطه من جميع جوانبه لا يترك منه جانبا مكشوفًا، ولا ثغرة مهدرة، لا تحرسها قوة قادرة، تملك الدفاع عنها وترد اعتداء من يحاول اقتحامها مهما كانت قوته وسلطانه.

وقد أراد النبي ﷺ أن يعالج بحكمته مرض الخوف الذي ملأ صدور زعماء شيبان من كسرى وعتوه وجبروت قوته الحربية، ويهون عليهم شأن هذه القوة التي يرهبونها، ويخافون سطوتها وبطشها ، لينزع من قلوبهم المهابة منهم، فهي قوة منهارة أمام قوة الإيمان بعقيدة الحق، بل هي قوة ينخر فيها سوس الفناء، وستتهاوى أمام قوة الحق والعدل.

ولعل هؤلاء العرب الذين استضعفوا أنفسهم أمام قوة الأكاسرة سيكون لهم شرك وإسهام في كسر حدة هذه القوة المادية الباطشة بزمجرتها الجوفاء في حقيقتها، لأنها لا ترتبط بقوة الإيمان بعقيدة الحق والعدل والإصلاح، وتحرير الإنسانية من براثن الاستعباد، وكذلك كل قوة لا تملك في روحانيتها هذا الارتباط العلوي محكوم عليها بالتفتت والزوال، وسيرثها الذين يقيمون دعائم قواهم على أسس من الإيمان والحق والعدل والإصلاح.

وقــد حلق رســول الله ﷺ في آفاق الغيب، وقــرأ في كتاب الكون وســنن الله في حياة المجتمع الإنساني أن قوى الشر لا بقاء لها، وقــد أراد ﷺ أن يرفع هؤلاء القوم الذين أخلدوا إلى الأرض لا يريمونها على أجنحة الأمل الفسيح، ليعدهم نفسيا ليوم يأتيهم وهم يخوضون معارك الشــرف والكرامة مع هؤلاء الأكاسرة باسم الإسلام والعدل، وأنهم سيكسرونهم ويورثهم الله تعالــى أرضهــم وديارهم وأموالهم، ويفرشــهم نســاءهم، يســتولدونهم جيلًا يجري في عروقه دمهم من أكرم ناحيتيه، ولا يكون ذلك إلا بقوة الإيمان بعقيدة الحق التي لا تطلب من صاحبهــا إلا حوطها بما يحفظها ويســتديم صلتها بالله القوي الأعلــى، مالك الملك، الذي يؤتي ملكه من يشــاء من عباده، وينزعه ممن يشــاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، فسبحانه تقــدس، بنعمه وحمــده، لا يطلب من عباده علــى إنعامه غير تسبيحه وتقديسه، فهل أنتم كذلك؟

وهنا بدر النعمان بن شــريك –وكان يصغي ويسمع، ويعي ولا يتكلم– ورأى أن الحوار بلغ نهايته بهذه البشرى الكريمة، فقال: اللهم لك ذا.

وعند ذلك أراد النبي ﷺ إنباءهم إعجازًا ليجعل ذلك واقعًا وعدًا من الله تعالى، فتلا عليهم ما خصه الله به من نعوت الحمد

والكمال والمجد والنصر المؤزر في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾

(الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

وقد تحقق ما أخبر به رســول الله ﷺ وفتحت فارس، وكان قائــد فتحهــا الأول قائد شــيبان وصاحــب حربهــا المثنى بن حارثــة، وكان أبو بكــر الصديق في خلافته، تأتيــه أخباره في غمرة حياة فارس بغاراته عليها واقتطاع أرضها فيعجب به قبل أن يعرفه.

ولمــا انتهى هــذا المجلس إلى غايته نهض رســول الله ﷺ طيــب النفس بما ســمع ورأى من القوم، ليتــرك أثر المجلس يعتلج في صدورهم، لعلهم، وعساهم.

وقــد أعرب ﷺ في أروع بيان وأبلغ أســلوب وأصدق كلام عــن محاســن الأخلاق التــي رآها فــي القوم، وهي مــن أخلاق العــرب في جاهليتهــم، وعن أدبهــم الاجتماعــي بعضهم مع بعض في حوارهم وإصغائهم وحســن استماعهم لما يجري من الحديث، وفي أســلوب مخاطبتهم لــه ﷺ وهم لما يؤمنوا به بعد، وحسن تناولهم للحديث معه ﷺ وفي صدق صراحتهم، وصراحة صدقهم، وفــي تعقلهم، وتأتيهم للأمور من مداخلها

في ريث وأناة، فقال ﷺ وهو يشد على يدي صاحبيه: الصديق أبـي بكر، وعلي بن أبي طالـب: «أية أخلاق كانت للعرب في الجاهلية؟ ما أشـرفها.. بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم».

هـذا لون من الأحداث التـي عرضت للنبي ﷺ وهو يعرض نفسه على الناس في منازلهم يدعوهم إلى توحيد الله، ويبلغهم رسـالات ربهـم، وقد اخترنـا ونختار منها مـا كان له أثر قوي فـي دفع سـير الرسـالة إلـى أهدافهـا، أو كان له أثـر في بيان صـور الكفاح الصبور الذي درج عليه رسـول الله ﷺ في أطوار دعوتـه، ليكون من ذلك نمـاذج لورثة تبليغ الدعوة من بعده، يحتذونها، ومثلا يتقلدونها، أداء لما قلدوه من وجوب القيام بنشر دين الله في أرجاء الأرض.

محنة الحصار الاقتصادي (المقاطعة الظالمة)

لم يفتر رسـول الله ﷺ لحظة واحدة عـن القيام بأمر ربه في تبليغ رسـالته، ونشر دعوته، وهو يلقى من محن البلاء وفوادح الإيذاء وسفاهة السفهاء، وإقامة العقبات في سبيل سير الدعوة إلـى أهدافها، والوصول بها إلى غايتها، صابرًا محتسـبًا، عفوًا صفوحًـا، كريمًا حليمًا، مما جعل دعـوة الحق والهداية تدخل إلى كل مجتمع ومحفل وناد في مواسم العرب وأسواقهم، حتى أصبح لها في كل قبيلة ذكر، وعند كل قوم أثر ومشهد، وتحدث الناس عن هذه الدعوة بين موافق معجب ومخالف مقلد.

وقـد أحفـظ ذلـك صناديد الشـرك وزعمـاء الوثنية، وملأ الكفر من المسـتكبرين فـي قريش، فاشـرأبت أعناق الحقد الأسـود في قلوبهم، وتعرجت طرائق المقاومة، وأبلسـوا في متائـه الحيـرة، وعُمِّي عليهـم الرأي، وغميـت عليهم دلائل الهدايـة، فلـم يعرفـوا إلا الشـر وذرائعـه، وإلا سـوء المكـر ووسـائله، وانتهـوا إلـى مجثم الشـيطان يسـتنزلون أوامره، وتلقوهـا من وحيه سـوداء مظلمة، حاقـدة مضطغنة، وراحوا يمكـرون ويدبرون لينفذوا أبشـع جريمة غـادرة خئون، بعد أن أعيتهـم مواقـف العزيمة الصارمة الماضية التي لا ينحسـر

مدهـا ، ولا يتوقف توثبها في ثبات ورسـوخ مـن الإيقان الذي مـلأ حيـاة محمد ﷺ ، وحيـاة أصحابه معه ، فاسـتهانوا بكل بلاء ، واحتملوا كل إيذاء وتعذيب ، وسـخرية واسـتهزاء ، فلم يبـق أمام ظلـم ذوي القربى إلا قاصمة الظهـر ، فقد طرقوا كل باب من أبواب الشر والفجور ، فلم يجدهم شيئا ، وانتثروا آخر سهامهم ، فلم يجدوا فيها إلا سهمًا واحدًا لم يجربوه ، ذلك أن يقتلوا محمدًا ﷺ علانية ليجعلوا قومه بني هاشم أمام عاصفة لا قبل لهم بالوقوف أمام زمجرتها وتدميرها .

أخـرج البيهقـي في الدلائل عـن ابن شـهاب الزهري فيما رواه عنه تلميذه موسـى بن عقبة صاحب المغازي ، قال : ثم إن المشـركين اشتدوا على المسلمين كأشـد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية .

تدبير أبي طالب لحماية رسول الله ﷺ من الاغتيال:

فلمـا رأى أبـو طالـب عمل القـوم جمع بنـي عبدالمطلب وأمرهم أن يدخلوا رسـول الله ﷺ شـعبهم ، ويمنعوه ممن أراد قتلـه ، فاجتمعوا على ذلك ، مسـلمهم وكافرهـم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعلـه إيمانا ويقينا ، وذلك في المحرم من السنة السابعة من النبوة .

ثم أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى الحبشـة ، وهذه هي الهجرة الثانيـة ، ومن قوي على البقاء بمكة دخل مع النبي ﷺ وقومه الحصار بالشعب .

سبب كتابة الصحيفة الظالمة وغايتها:

فلمـا عرفـت قريـش أن القـوم قد منعـوا رسـول الله ﷺ ، واجتمعـوا على ذلك اجتمع المشـركون من قريش ، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم إلا أن يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

وكتبوا بمكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق ألا يقبلوا من بني هاشـم أبدا صلحًا ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا محمدًا ﷺ للقتل ، فلبث بنو هاشـم في شـعبهم ثلاث سنين ، واشتد عليهـم البلاء والجهـد ، وقطعوا عنهم الأسـواق ، فلا يتركون طعاما يقدم مكة ، ولا بيعا ، إلا بادروهم إليه فاشـتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ .

شـدة حرص أبي طالب على حماية رسـول الله ﷺ وتدبيره لذلك:

وكان من شـدة حرص أبي طالب على رسـول الله ﷺ وبالغ حياطتـه وحفظـه أنـه كان مـدة زمن الحصـار إذا أخـذ الناس مضاجعهـم أمـر رسـول الله ﷺ فاضطجع على فراشـه المعد لنومـه حتى يرى ذلك من أراد بـه ﷺ مكرًا لاغتياله ، فإذا نوم

الناس أمر أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

فلما كان رأس ثلاث سنين -أي من ابتداء دخولهم الشعب- تلاوم(١٠) رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش، قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر، والبراءة منه.

آية الله في صحيفة المقاطعة الظالمة:

وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي كان المكر فيها برسول الله ﷺ الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق. ويقال: كانت معلقة في سقف البيت، ولم تترك اسما لله عز وجل فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم، أو قطيعة رحم.

وفي رواية لصاحب العيون عن ابن هشام قال: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «يا عم إن ربي قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسما لله إلا أثبتته، ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان».

(١٠) لام بعضهم بعضا. (المجلة).

سعي أبي طالب بما أخبره به رسول الله ﷺ من آية الله في صحيفة المقاطعة:

قال أبو طالب: أربك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم» قال أبو طالب: فوالله ما يدخل عليك أحد، وأطلع الله عز وجل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل(١١) من قريش، فلما رأوهم عامدين إليهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء، فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ، فتكلم أبو طالب، فقال: قد حدثت أمور بينكم لم تذكر لكم، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح -وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة، قبل أن يأتوا بها- فأتوا بالصحيفة معجبين بها، لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم، فوضعوها بينهم، وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم وعشيرتكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرا لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

(١١) ممتلئ. (المجلة).

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمرًا لكم فيه نصف[١٢].

إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني أن الله -عز وجل- بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا، فوالله لا نسلمه أبدا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم.

قالوا: رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب، قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحرًا من صاحبكم فارتكسوا[١٣]، وعادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين.

كاتب الصحيفة وما صبه الله عليه من بلاء:

وهذه الرواية تقول: إن الصحيفة كانت عند هشام بن عمرو بن الحارث العامري، وقيل هو كاتبها، والمعروف أن الصحيفة علقت في جوف الكعبة تأكيدا للتمسك بما فيها من عهود ومواثيق، وفي كاتبها بعد هذا القول اختلاف، قيل:

---

(١٢) النَّصَف والنصفة العدل. (المجلة).

(١٣) ارتكسوا: رجعوا عن عهدهم وعادوا إلى الشر. (المجلة).

إنه منصور بن عكرمة، وقيل: إنه بغيض بن عامر، وقيل: إنه النضر بن الحارث، وفي هؤلاء الثلاثة قيل: فشلت يده أو أصابعه.

قال السهيلي في (الروض): وذكر أن منصور بن عكرمة كان كاتب الصحيفة فشُلَّت يده، وللنساب من قريش في كاتب الصحيفة قولان، أحدهما أن كاتب الصحيفة هو بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والقول الثاني أنه منصور بن عبد بن شرحبيل بن هاشم من بني عبد الدار، وهو خلاف ابن إسحاق الذي ذهب فيه إلى أن كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

قال السهيلي: ولم يذكر الزبير في كاتب الصحيفة غير هذين القولين، والزبيريون أعلم بأنساب قومهم.

شدة الحصار واحتمال المحاصرين وفجور المحاصرين:

وقد كانت المحنة في هذا الحصار الظلوم شديدة، قاسية، موجعة، مؤلمة، قابلها المؤمنون بالصبر الجميل، والتحمل الكريم.

قال السهيلي: إنهم جهدوا[١٤] حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان

---

(١٤) أصابهم الجهد والتعب. (المجلة).

فيهم سعد بن أبي وقاص، روي أنه قال: لقد جعت حتى إني وطئت على شيء فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن.

وفي رواية يونس: أن سعدًا قال: خرجت ذات ليلة لأبول، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها، ثم رضضتها وسفسفتها(١٥) بالماء، فقويت بها ثلاثا.

وكان طغاة المشركين وهم مستغرقون في عتوهم وفجورهم إذا قدمت العير مكة يأتي أحد هؤلاء المحصورين السوق ليشتري شيئا من الطعام لعياله، فيقوم المتبوب بلعنة الله أبو لهب عدو الله فيقول: يا معشر التجار، غالوا(١٦) على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيزكيهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعًا وعريًا.

(١٥) رضض بمعنى دقَّ، وسفسف بمعنى طحن ونخل. (المجلة).

(١٦) ارفعوا عليهم الأسعار. (المجلة).

كاتبها ماحيها:

ومن عجائب حكمة العليم الحكيم عز شأنه أن أحسن القوم بلاء في كشف هذه الغمة ونقض الصحيفة الظالمة الفاجرة هو أشدهم لها في بدء أمرها حماسة، كاتبها -كما قيل- والأمين على حفظها -كما قيل أيضا- هشام بن عمرو بن لؤي، وأبوه عمرو أخو نضلة بن هاشم لأمه، الذي بدل الله شدته على المؤمنين رأفة ورحمة، وجفاءه عطفا، وقطيعته وصلا، فكان من أوصل القوم للمؤمنين ومن معهم، وكان شريفا في قومه ذا مروءة ونخوة.

كان -كما يقول ابن إسحاق- يأتي بالبعير ليلا قد أوقره(١٧) طعاما حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بزًا أو برًا(١٨) فيفعل به مثل ذلك.

قال محمد بن سعد: كان هشام بن عمرو العامري أوصل قريش لبني هاشم حين حصروا في الشعب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعاما، فعلمت بذلك قريش، فمشوا إليه حين أصبح فكلموه في ذلك، فقال: إني غير عائد لشيء خالفكم فانصرفوا عنه، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم ليلا

(١٧) حمله حملاً ثقيلا. (المجلة).

(١٨) البز: نوع من الثياب، والبرُ: القمح. (المجلة).

حمــلا أو حملين، فغالظته قريش وهمت به، فقال أبو سـفيان بن حرب: دعوه، رجل وصل أهل رحمه، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا.

وهــو أول من نهض في نقــض الصحيفة الظالمة، جمع إليه مــن صناديد قريش ثلة لــم يزل يفتل لهم في الــذروة والغارب حتــى اســتنزلهم إلى رأيه، فمشــى إلــى زهير بن أبــي أمية بن المغيــرة، وأمه عاتكــة بنت عبد المطلب، أخــت أبي طالب، وعمة رســول الله ﷺ، وهذه سياسة في الرأي تدل على ثقوب فكــره، وذكاء قريحتــه، وتأتيه للأمــور من قبلتهــا ووجهها، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكــح النســاء، وأخوالك حيث قد علمــت لا يباع لهم، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا.

فانظر إلــى معرفته بدخائل النفوس وإثــارة حفائظها لتقدم على ما تريد غير مبالية بما يكون من كوائن الأخطار في سبيل الوصول إلى الهدف.

فقــال له زهير وقــد اســتهواه منطقه: ويحكم يا هشــام!! فمــاذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحــد، والله لو كان معي رجل آخر

لقمــت في نقضها حتى أنقضها، قال هشــام: قد وجدت رجلا قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا.

فذهــب هشــام إلى المطعم بــن عدي، فقال لــه: يا مطعم، أقد رضيــت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شــاهد علــى ذلك، موافــق لقريش فيه، أمــا والله لــو أمكنتموهم من هــذه لتجدنهم إليها منكم ســراعا، قال مطعــم: ويحك فماذا أصنــع؟ إنما أنــا رجل واحد، قال: قد وجــدت ثانيًا، قال: من هــو؟ قال أنا، قــال: ابغنا ثالثا، قال قد فعلــت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعًا، فذهب هشام إلى أبي البختــري بن هشــام، فقال له نحوا مما قــال لمطعم بن عدي، فقال أبــو البختري: وهل من أحد يعين على ذلك؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامســا، فذهب هشــام إلى زمعة بن الأســود بــن المطلب بن أســد فكلمه وذكــر له قرابتــه وحقهم، فقال زمعــة: وهل على هذا الأمر الذي تدعونــي إليه من أحد؟ قال: نعــم، ثم ســمى له القــوم. فاتعدوا خطم الحجــون ليلا بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوهــا، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أوَّل مــن يتكلم، فلما أصبحــوا غدوا إلى أنديتهــم، وغدا زهير بن أبــي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت ســبعًا ثــم أقبل على الناس

فقـال : يا أهـل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشـم هلكـى لا يباع لهـم ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشـقق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! !

لؤم نحيزة[١٩] أبي جهل جعله يقف موقفًا لئيمًا:

قـال أبو جهل –وكان في ناحية المسـجد– : كذبت والله لا تُشَقُّ ! قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتب فيهـا ، ولا نقر به ، قال المطعـم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها ، وقال هشـام بـن عمرو نحوًا من ذلـك ، فقال المخـذول الفاجر أبو جهل : هذا أمر قُضي بليل ، تشـوور فيه بغير هذا المكان ، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم» .

وكانـت تلـك الوثبة فـي القيـام لنقض الصحيفـة الظالمة القاطعـة بعد أن أخبر رسـول الله ﷺ عمه أبـا طالب بما أخبر بـه بالوحي في شـأن الصحيفة ، وتحدث بـه أبو طالب إلى ملأ قريـش ، فوجـدوه كما قـال الصـادق المصـدوق ، عندما أتوا بالصحيفـة ونظـروا فيها ، فقالـوا عنادًا وفجورًا : هذا سـحر ، وعزمـوا على المضي فـي عتوهم وعنادهـم ، ولكنهم فوجئوا

(١٩) نحيزة الرجل طبعه وسجيته. (المجلة).

بهشـام بن عمرو ومـن قام معه من صناديدهـم ينكرون ما في هذه الصحيفـة القاطعة من الظلم وغلظ الأكباد ، وهمَّ المطعم بتشـقيق الصحيفة ، فلم يجدوا فيها إلا «باسـمك اللهم» وباء ملأ قريش بالخزي والخذلان ، ونصر الله رسوله ﷺ .

وقد استفحل فجور أبي جهل في هذه المحنة ، فكان يترصد كل شيء يدخل إلى الشعب ليمنع ما عسى أن يكون فيه بعض الإسـعاف للمحصورين ، وهم يقاسون مع نسـائهم وأطفالهم مرارة الجوع والعري في محبسـهم وعزلتهم ، فقد ذكر سـائر الـرواة أن أبا جهـل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ، ومعه غلام يحمـل قمحًا يريد به عمته خديجة ، وهي في الشـعب ، فتعلق بـه ، وقال : أتذهب بالطعام إلي بني هاشـم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختري بن هشـام ، فقال : ما لك وله ؟ قال : يحمل الطعام إلى بني هاشـم ، قال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلِّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البختري لحي بعير فضربه به فشـجه ووطئه وطئًا شديدًا ، وحمزة –رضي الله عنه– يرى ذلك ، ويكرهون أن يبلغ ذلك رسـول الله ﷺ وأصحابه ، فيشمتوا بهم ، ورسول الله ﷺ على ذلك دائب يدعو قومه ليلًا ونهارًا سرًا وجهرًا .

عودة النشاط إلى سير الدعوة:

فلما انتهى أمر هذه الصحيفة الظالمة القاطعة وأفسدها الله بحكمته وتدبيره وجعل فسادها على أيدي قوم من صناديدهم وغطاريفهم، وفتَّ ذلك في أعضادهم، وفرق كلمتهم وجللهم بالعار والشنار خرج رسول الله ﷺ ورهطه، فعاشوا وخالطوا الناس، وعادت دعوة الإسلام إلى سيرتها الأولى، يحملها رسول الله ﷺ إلى مضارب القبائل ومجتمعات الناس في المواسم والأسواق، وكان ﷺ يخرج إلى محافل العرب يسأل عن أشراف الناس وساداتهم، ويجلس إليهم يدعوهم إلى إيوائه حتى يؤدي رسالة ربه، فما كان يجد عند أحد منهم خيرًا، يقولون له وهم يردونه أقبح الرد: قوم الرجل أعلم به، حتى قيض الله له من ادخرهم في أزل الغيب لنصرة دينه والتشرف بإيواء نبيه، أولئك أنصار الله وأنصار رسوله وكتائب الإسلام.

عام الحزن وتوالي اشتداد المحن

كان خروج النبي ﷺ من محنة الحصار، وتقاسم المشركين على فجور الكفر، هو ومن معه من المؤمنين الذي بقوا في مكة، ولم يهاجروا مع إخوانهم أصحاب الهجرة الثانية إلى الحبشة ومن دخل معه من بني هاشم والمطلب حمية قومية، وهم على دين قومهم من الشرك والوثنية في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة بثلاث سنين.

وقد كان الدخول إلى الشعب وبدء الحصار هلال المحرم سنة سبع من النبوة وكانت مدة هذا الحصار الظلوم ثلاث سنين في رواية موسى بن عقبة، أو سنتين في رواية محمد بن سعد، وقد ذكر ابن إسحاق الروايتين على الشك، فقال: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا، وقد كانت هذه المحنة لونًا من ألوان التربية التي تعهد الله تعالى بها نبيه محمدًا ﷺ ليعده لتحمل أثقال الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته، بما كان فيها من شدائد ومحن وتمحيص لعزائم أهل الإيمان.

كان خسران ملأ قريش وفجار عتوها غصصًا[٢٠] في حلاقيمهم زادهم عنادًا وفجورًا:

وقد حز في أنفس طغاة الشرك أن يبوء بالخسران المبين تدبيرهم السيِّئ، ومكرهم الحقود، إذ رد الله تعالى كيدهم

(٢٠) الغَصص والغصة: وقوف الطعام في الحلق حتى يمنع النفس (المجلة).

فــي نحورهــم، وأحــاق بهم ســوء مكرهــم، فشــرقوا[٢١] بما دبــروا وازدادوا عتوًا فــي كفرهم وفجورًا فــي عتوهم، فافتنوا فــي تعذيب من تمكنوا من تعذيبه من المؤمنين، ومنعوهم من كل ما يحفظ عليهم ذماء[٢٢] الحياة ويسد الرمق، والمؤمنون صابــرون محتســبون، لا يزيدهــم هذا الطغيان إلا رســوخًا في يقينهم، وإيمانًا بدينهم، واستمســاكًا بعقيدتهم، واستشرى الحقد في صدور أحلاس[٢٣] الوثنية فأحرق قلوبهم، وزئر كل قبيل منهم بكل من كان يمت إليهم من المؤمنين بصلة قرابة، أو ولاية أو حلف، فلم ينل ذلك من إيمانهم شــيئًا، فكان هذا الثبــات على الإيمان تحت أســواط التعذيب أغيظ لملأ الكفر مــن عتــاة المشــركين، ولا ســيما أن النبي ﷺ بعــد أن خرج بمن معــه من المؤمنين من محنة الحصــار مظفرًا قويًا، ماضي العزيمة، لا يصده عن المضي في نشر دعوته فادح البلاء، ولا يثنيه عن تبليغ رســالته زمجرة الطغيــان– ازداد تحركه وازداد اتصالــه بالناس في مجتمعاتهم ومحافلهم وأنديتهم، يدعوهم إلى الله، ويُســمعهم آياته، فلم يكن ﷺ يسمع بمنزل شريف من أشــراف العرب إلا جاءه ودعاه وقومه إلى الله، فازداد بذلك

(٢١) الشَّرق: انسداد مجرى النفس بالماء. (المجلة).

(٢٢) الذماء: بقية الروح. (المجلة)

(٢٣) الأحلاس: جمع حلس، وهو ما يُفرش تحت كريم المتاع، ويُقال لمن لازم أمرًا هو حلسه (المجلة).

انتشــار الدعوة، وتســامعوا بتفاصيل محنة الحصار وتقاســم الطغاة على الكفر والقطيعة، وعرفوا تأييد الله تعالى لنبيه ﷺ فــي نقض تلك الصحيفة الظالمة التــي تعاهد فيها الظالمون، وتقاســموا على القتل والفتك بأبشــع صوره، وذاع في أسواق العــرب ومواســمهم ما وقع في الحصار مــن معجزات باهرات وآيات قاهرات.

مواقف الجمهرة من الدعوة:

فمن الناس من كان يســمع النبي ﷺ ويؤخذ بما يسمع من هداية فيحسن الرد، ويقف حائرًا لا يخطو إلى ساحة الإيمان، ومنهم من كان يســتمع إليه ﷺ ويســيء الرد في جفوة جاهلة وعنجهيــة فاجرة، وبأو مغرور، فيقــول لهم النبي ﷺ «إني لا أُكره أحدًا منكم على شــيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلــك، ومن كره لم أكرهــه، إنما أريــد أن تحرزوني[٢٤] مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رســالة ربــي، وحتى يقضي الله عز وجل لي ولمن صحبني بما شاء الله» فلم يقبله أحد منهم.

إن في هذه الكلمات النبوية الشفافة من وداعة العرض وسمو الإشفاق ما ينطق الشم الرواسي، ولكن الهدى هدى الله.

ومن الناس من طمع واشرأب للدنيا، ورأى في عرض النبي ﷺ نفســه عليهــم في مضاربهــم ومنازلهم يدعوهم إلــى أن يُئووه

(٢٤) تحرزوني : أي تمنعوني وتحموني. (المجلة).

ويحرزوه حتى يبلغ رسالة ربه فرصة سانحة لتحقيق مآربه من العلو في الأرض، فكان النبي ﷺ يفهمهم في هدوء ويقين أن أمره وأمر دعوته ورسالته ليس أمر دنيا تحاز، ولا مطامع فيها تنجز، ولا مآرب من مظاهرها تحقق، وإنما أمره أمر دعوة إلى الله الحق، مالك الدنيا والآخرة، وهو ﷺ ليس له من الأمر شيء، والأمر كله بيد الله يضعه حيث يشاء، وهو ﷺ في أشد الحاجة إلى من يحرزه ويئويه ويحفظه مما يراد به من القتل والفتك، لكنه رسول الله ﷺ ليس عليه إلا بلاغ رسالة الله، وليس له أن يعد أحدًا بأن الأمر بعده له؛ لأن الملك لله تعالى يؤتيه من يشاء، وليس وراء ذلك منزلة من منازل الصدق والأمانة والإخلاص.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أنه ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله -عز وجل-، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له بَيْحَرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتي من قريش لأكلت به العرب، ثم قال للنبي ﷺ أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال النبي ﷺ: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» قال بيحرة: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

قال ابن إسحاق: فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم،

فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما كان في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبدالمطلب، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب(٢٥)؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟

محن في دروس ودروس في محن، ذاك هو منهج الدعوة إلى الله:

هذه المحن القاسية كانت صيقلًا لعزائم المؤمنين، ومددًا لعزيمة رسول الله ﷺ ودروسًا للتربية في مستقبل الدعوة القريب والبعيد، وتأسيسا لمنهج الوراثة في الدعوة إلى الله.

ومن ثم لم تكن هذه المحن سوانح تمر، ولكنها كانت ثوابت تتوالى صورها وتتتابع ألوانها، فلم تكن تمضي محنة حتى تتبعها شدة، ولم تكد تذهب شدة حتى تليها محنة، وكان الاعتصام بالصبر الصبور هو الدرع الحصينة التي يئل إليها رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم يعرف أن موقفًا من هذه المواقف استفزه ﷺ فغير من هدوئه ووداعته، ولم يعرف أن أحدًا من أصحابه الأولين آثر العافية على مرارة الصبر، والرضا بمحن البلاء.

---

(٢٥) هل لذناباها من مطلب: مَثَل يُقال لمن أضاع فرصة ثمينة، وأصله من يطلب ذنابي الطائر، إذا أفلت. (المجلة).

ولهذا كان لا بد أن تستوفي المسيرة نصيبها من التمحيص الـذي يصنع حيـاة المجتمع المسـلم، ليقوى على الإمسـاك بزمام القيادة الإنسـانية إلـى آفاق العزة وصـادق الإيمان بالله إلهًا واحدًا، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

رزء الإسلام ونبيه ﷺ بوفاة خديجة -رضي الله عنها-:

كانت السيدة خديجة -رضي الله عنها- وزيرة صدق للنبي ﷺ علـى دعوتـه، تواسـيه وتخفـف عنه مواجع مـا يلقى من الناس، فيسكن إليها، وتطمئن نفسه إلى مواساتها، ويستعيد نشـاطه بما تصبـه في قلبه من حنـان الزوجة التـي تقدِّر حياة هذا الـزوج الأكرم قدرها، وتعرف له مكانتـه في حمله أعظم أمانة حملها كاهل بشر في الحياة، وقد شهدت منه في مشرق رسالته ما لم يشهده غيرها من الناس، فآمنت به وصدقته رسولًا أمينًـا لله تعالى، يتلقـى وحيه ويبلغ رسـالته، فيلقى من البلاء مـا تنوء تحت ثقلـه ثوابت الرواسـي، فتنفِّس عنه وتشـجعه وتعينه على الصبر، وتفتح له باب الأمل، وتمسـح عن صدره ضائقـات الصـدور، وتعيد إليه البسـمة الحانيـة، وتهمس له بلواطـف العواطف، فينهض من عندها وهو أكمل الناس يقينًا

وأرضاهم نفسًـا وأرهفهم حسًـا، وأقواهـم عزيمة، وأصدقهم صبرًا، وأرسـخهم إيمانًا برسـالته، وأعرفهم بموجبات حمل هذه الرسالة وأرضاهم بتحمل أثقالها.

وقد قضت السيدة خديجة -رضي الله عنها- في كنف رسول الله ﷺ أشـق مراحـل الدعوة، فكانت حياتهـا معه أوفى حياة زوجة لزوجها، وأبر حياة شـريكة لشـريكها، كانت تشاركه مباهجه ومسراته، وتهيئ له أسباب تفرغه لعبادة ربه، تخدمه في بيتـه بقلبها وعقلهـا وروحها وبدنها، وتـرد عنه عاديات الحيـاة بيـن قومه، حتـى إذا جاءتـه النبوة بطلائعهـا ووحيها كانـت أول من آمـن به وصدقتـه وزادته من حبهـا وحنانها ما كان له نعم المعيـن في هذه المرحلة التي كانت مرحلة إعداد للرسالة الخاتمة الخالدة.

صورة وصفية للرسالة الخاتمة الخالدة:

ورسـالة محمد ﷺ ليسـت كالرسـالات التي سـبقتها في المنهج العمـلي؛ لأنها رسالة عامـة خاتمـة لجميع الرسالات الإلهيـة، بـدأت بعنـف التصفيـة لعلائـق البشـرية بالطبيعة الروحانيـة التـي يتلقى بهـا وحـي التبليغ عن المـلأ الأعـلى -كمـا فصلناه عند الحديث عن بدء الوحي- فخاف النبي ﷺ لفرط ما لقي من الشدة وغرابة اللقاء والتلقي، وعاد إلى كنف الحنـان والإشـفاق التعاطفي فـي حياطة الوفـاء الزوجي عند

هـذه الزوجة الوفية، وحدثها بمـا رأى، ولقي وتلقى، فعرفت بفراستها الواحية، وحسـها المرهف، وشعورها المستشرف أن أمر هذا الزوج الأكرم لم يعد أمر حياة زوجية يملؤها الحنان والوفاء، ولكنها وثبت إلى حياة جديدة في معالمها التي تنبئ عنهـا إرهاصاتها، إلى حياة رسـالة ورسـول، حيـاة دعوة إلى مـا لم تعرفه البيئـة التي يعيش فيها محمـد ﷺ وما لم يعرفه المجتمـع العام الذي يتقلب بيـن جنباته محمد ﷺ إلى حياة تهـدم وتبني، تهدم الشـرك والوثنية، وتبنـي التوحيد، تهدم الظلـم وتبني العدالة، تهدم الباطـل في جميع صوره ومظاهره وتبني الحـق بأدلته وبراهينه، تهدم الاسـتعباد المادي وتبني الحريـة الروحانيـة، تهدم الشـر وتبني الخير، تهـدم التقليد البليد الأبله، وتبني انطلاق العقل إلى المعرفة والهداية.

تسامي خديجة بحياة الزوجية الوفية إلى حياة الصديقية المؤمنة:

فلترتفـع خديجـة الصديقة الأولـى بحياة الزوجيـة الوفية إلى حياة الصديقية العظمى حياة الإيمان بالرسـالة والرسول، ولتنهض بالعبء المثقل في حياتها الجديدة مع زوجها رسول الله ﷺ، ولتكـن معـه وزيـرة صـدق، ورفيق إخـلاص وفداء، ولتكتشف الطريق بأسلوبها الخاص لتزيده تثبيتًا في النهوض بحياتـه الجديدة، ولتضاعف له حبهـا وحنانها، وقد ذكر لها

ﷺ مخاوفـه مـن أن لا يسـتطيع النهوض بعبء مـا حُمِّلَه في حياتـه الجديدة، فكشـفت له ﷺ ما يعلمه من نفسـه من أنه مجمع مكارم الأخلاق، وموئل الفضائل، ومنتجع الشـمائل، ومنبع المحامد، ومصـدر الخير، هو الصادق الأمين، الذي لا يخزى ولا يخذل، سـنة الله فـي الحياة، فليفرغ روعه، وليزدد إيمانًـا بأنه المنصـور المنتصـر، وليزدد يقينًا بأنه سـينهض بعبء رسالته؛ لأن الله اجتباه لها و﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

ورقة يؤكد فراسات خديجة وتوسماتها في رسول الله ﷺ:

وهؤلاء أهل العلم الأول، فلتذهب خديجة إلى عليمهم وقارئ الكتـاب الأول: ورقة بن نوفل، ليخبرها بما عنده بعد أن تحدثه بمـا رأت وسـمعت، وكان تصديـق ورقة آية من فراسـة خديجة -رضـي الله عنهـا-، وأنبأ ورقة محمـدًا ﷺ بالنبـأ العظيم، نبأ الرسـالة الخاتمة وأثقالها، فكان ذلـك إيذانًا لخديجة بأن حياة الدعـة والراحة قد ولت، وأن حياة الجهاد والنضال والشـدة قد بدأت، فلتكن وقفتها إلى جانب محمد ﷺ في حياته الجديدة، حياة الرسالة والرسـول وقفة تتسامى إلى مستوى ما ينتظره من شدة وكفاح، وصدقت خديجة ما عاهدت الله عليه، بسبقها إلى الإيمان سبقًا لم يشاركها فيه أحد ولا يلحقها فيه أحد، ومضت

-رضي الله عنها- في طريق هذا السبق تقفو أثر رسول الله ﷺ وتتبع خطواته، لتحيط بخُبْره علمًا، حريصة عليه أشد ما يكون حرص زوجة أمينة وفية على زوج حبيب، حفيظة عليه أشد ما يكون الحفظ من صديقة راسخة اليقين برسالة رسول كريم.

ومرت الحياة في ظل وفاء الزوجية وصديقية الإيمان بين محمد الزوج الحبيب، ومحمد الرسول الكريم، وبين خديجة الزوجة الوفية، وخديجة الصديقة المؤمنة، برسالة هذا الرسول الكريم.

عمل خديجة في بيتها بالوفاء الزوجي وتربية أولادها ونشر لواء الصديقية المؤمنة -كان أعظم عمل تؤيد به الدعوة إلى الله:

وبدأ الكفاح الصارم، والنضال العتي بين الحق والباطل، الحق الذي تمثله رسالة محمد ﷺ والباطل الذي يصوره فجور الشرك والوثنية في ملأ الكفر، ولم يكن لخديجة في هذا الكفاح المرير صوت يسمع؛ لأنها -رضي الله عنها- كانت معتصمة بأدب أدبها الله به، وعلم علمها الله إياه، فهي زوج محمد ﷺ وأم ولده قبل أن تأتيه رسالة ربه، فعملها في البيت وهو عمل كبير عظيم، يسدي للرسالة فضلًا ويمدها بقوة، تستجد بها ثباتها أمام عتو الكفر؛ لأن محمدًا الرسول ﷺ أحوج ما يكون وهو يخوض نضالًا مريرًا في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى عاطفة الوفاء في زوجة صادقة الإيمان برسالته، تنسكب

في قلبه بردًا وسلامًا إذ يئوب إلى بيته، فيحدَّث ويتحدث في جو عاطفي يظلله الإيمان والحب، وتهون عليه الصعاب وتتجدد عزائمه، ويقوى صبره، ويجتمع أمره، ويخرج إلى حياة الناس مجتمع الإرادة، سوي الشخصية، مسيح الآلام، فسيح الآمال، روي الفؤاد بالصفح والعفو والإحسان.

وبهذا الأدب الإلهي الذي اعتصمت بعواصمه خديجة -رضي الله عنها- عاشت في كنف محمد الزوج ﷺ ومحمد الرسول ﷺ تتقاسم معه الشعور بالسعادة في التطلع إلى آمال المستقبل في آفاق الحياة، وتقاسمه الإحساس بأعباء الحاضر وآلامه في ظل أثقال نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، معتصمة بالصبر الجميل تأسيًا به ﷺ في مجالات الحياة، فيما ترى بين يديها من حاله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه الرسالة بشدائدها، وقوة دفعها الذي استحوذ على إحساساته ومشاعره وسائر قواه الفكرية والروحية والبدنية.

حتى إذا بلغ طغيان أحلاس الشرك من ملأ الكفر ذروة الفجور العتي، إذ تعاقدوا فيما بينهم، وتعاهدوا بعد أن يئسوا من أن ينالوا من رسول الله ﷺ نيلًا، وكتبوا بهذا التعاهد وثيقة في صحيفة ظالمة، ضمنوها مقاطعة بني عبد مناف ممن يقف إلى جانب محمد ﷺ لنصره وحمايته من سوء ما يريد

الطغاة الفجار وسائر المؤمنين بدعوته المصدقين برسالته من غيرهم، فلا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ويمنعون عنهم كل ما يرفقهم في حصارهم، وأن لا تأخذهم بهم رأفة أبدًا حتى يسلموا محمدًا للقتل أو يموتوا صبرًا.

ودخلت خديجة -رضي الله عنها- حصار الشعب مع زوجها محمد رسول الله ﷺ تشاركه آلام المحنة ومرارتها راضية صابرة محتسبة، وظلت معه تواسيه وتخفف عنه وقع هذا الظلم الفاجر بما تبديه من احتمال ورضا، وهو ﷺ ساكن القلب إلى وفائها ومودتها وحبها له حب جد وإجلال، وحرص وحفاظ.

حتى قضى الله تعالى قضاءه في هذه المقاطعة الظالمة التي مكثت سيفًا مصلتًا على أعناق كل من يئل إلى محمد ﷺ إيمانًا به وتصديقًا برسالته أو حمية قومية له، فمزقت صحيفتها بعد ثلاث سنين من كَتْبِها بأيدي من كَتَبَها، وقيام من عاهد على ما فيها من ظلم وفجور وقطيعة.

وخرج رسول الله ﷺ من هذا الحصار ظافرًا منصورًا بما صنع الله له من تدبير حكيم محكم، يتابع سيره في نشر دعوته وتبليغ رسالته، وخرجت معه زوجه الوفية خديجة إلى بيتها تتابع سيرها في الحياة زوجة أمينة، مستظلة بظل الوفاء وصادق الإيمان.

موت خديجة وتسليم الله عليها وتبشيرها بالنعيم المقيم:

ولكنها -رضي الله عنها- لم تلبث إلا قليلًا بعد الخروج من الحصار حتى لبَّتْ نداء ربها راضية مرضية، مبشرة من سيد الخلق زوجها الحبيب الرسول الكريم ﷺ بالنعيم المقيم في فراديس الجنان، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أتى جبريل النبي ﷺ وهو بغار حراء -كما عند الطبراني في رواية سعيد بن كثير- فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومِنِّي، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

قال ابن حجر في الفتح: زاد الطبراني في رواية سعيد بن كثير المذكورة: فقالت: هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام. وعند النسائي زيادة: وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته.

معرفتها بعظمة الله في ردها على سلامه عليها:

قال ابن حجر في الفتح: قال العلماء: في هذه القصة دليل على وفور فقهها؛ لأنها لم تقل وعليه السلام كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون في التشهد: السلام على الله، فنهاهم النبي ﷺ وقال: «إن الله هو السلام فقولوا: التحيات

لله» فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يُرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين.

وقد مكثت عند رسول الله ﷺ زوجة أمينة وفية، رزقه الله منها جميع ولده إلا إبراهيم -عليه السلام-؛ فأمه السيدة مارية القبطية -رضي الله عنها- خمسًا وعشرين سنة.

قال الحافظ ابن حجر: وقد تقدم في أبواب بدء الوحي بيان تصديقها للنبي ﷺ في أول وهلة، ومن ثباتها في الأمر ما يدل على قوة يقينها، ووفور عقلها وصحة عزمها، لا جرم كانت أفضل نسائه، ثم قال ابن حجر: وروى الفاكهي في كتاب (مكة) عن أنس أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة، فأذن له، وبعث معه جارية يقال لها (نبعة) فقال لها: انظري ما تقول له خديجة؟ قالت (نبعة) فرأيت عجبًا، ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها، ثم قالت: بأبي وأمي، والله ما أفعل هذا لشيء ولكن أرجو أن تكون أنت النبي ﷺ الذي ستبعث، فإن تكن فاعرف حقي ومنزلتي، وادع الإله الذي يبعثك لي، قالت (نبعة) فقال لها: والله لئن كنت أنا هو قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبدًا، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدًا.

والظاهر أن هذه القصة -إذا صحت- كانت في فترة رغبة عمه في زواجه بها.

وإلى هنا يقف القلم قليلًا ليستشف مستشرفًا لآفاق الغيب ليرى ما نال رسول الله ﷺ من شديد الأسى وبالغ الحزن على فقد لون من الوفاء الصدوق، والحب العقول الأمين، بفقد أوفى زوجة وأصدق صديقة بموت خديجة -رضي الله عنها- وليعلم أية دعامة من دعائم الإخلاص الوفي، وقوة اليقين، ووفور العقل كانت في إهاب هذه الشخصية الصامتة الفريدة في حياة هذه الزوجة الأمينة الوفية والصديقة المؤمنة، وما كان لها من أثر في سير الرسالة فترة شدتها ومطلع إشراقها، بما كانت تضفيه على النبي ﷺ من حنان، يمسح عن جبينه عرق المشقة، مما كان يجده في تلقيه وحي الرسالة وفي طريق تبليغه ما يوحى إليه، من الأذى وفادح البلاء.

ترى، ماذا يستطيع القلم أن يكتب وهو سابح في آفاق هذه الحياة الجديدة ليستشف ويرى ليسجل؟ أجل، إنها خديجة زوج محمد رسول الله ﷺ وأم ولده، وأول المؤمنين والمؤمنات به نبيًا ورسولًا، الطاهرة الكاملة، وكفى، إذ لا فخر وراء ذروة المجد والسؤدد الذي لا يتكرر في الحياة أبدًا.

رزء الحمية القومية بفقد أبي طالب:

كان أبو طالب -واسمه عبد مناف بن عبد المطلب- عم رسول الله ﷺ أخو أبيه عبدالله بن عبد المطلب شقيقه لأبيه

وأمه، وريث مكانة أبيه عبد المطلب في زعامة بني عبد مناف وهاشم سادة قريش القوامين على خدمة البيت الحرام بمكة.

كفالة أبي طالب محمدًا:

وكان أبو طالب وصي أبيه في كفالة حفيده محمد بن عبد الله ﷺ بالقيام على رعايته وحفظه وحمايته، وكانت سن محمد ﷺ يوم مات جده عبد المطلب ثماني سنوات، وقد ضم أبو طالب ابن أخيه محمدًا ﷺ إلى حضن كفالته، وجعله مع عياله، يحوطه ويحفظه ويحرص على راحته أشد الحرص، وقام بكفالته أحسن القيام، وأحبه حبًا لم يحبه أحدًا من ولده، وصب به صبابة شديدة لم يكن يطيق معها أن يفارقه، فكان ملازمًا له في غدوه ورواحه وحله وترحاله، وسفره وإقامته، ونومه ويقظته، وقد ثبت أنه صحبه معه في بعض أسفاره للتجارة وهو غلام يفعة، حتى شب محمد ﷺ في ظل هذه الكفالة شبابًا رويًا، ونشأ نشأة عزيزة كريمة حبيبة، واشتد ساعده، وبدرت رجوليته مبكرة، وشارك عمومته وأبناءهم في العمل ليكسب رزقه، وأبو طالب لا يغفل عنه لحظة، يسدده في عمله ويوجهه في سعيه، راعيًا، أو تاجرًا، أو مقارضًا، واستوى شباب محمد ﷺ في ظل هذه الكفالة الموفقة، رجلًا ضربًا من الرجال لا تعرفه الجاهلية، في أخلاقها، وعاداتها، ومعارفها، فكان فيهم الأمين الصدوق، الوفي، الكريم الودود

الألوف، وكان أبو طالب كثير العيال، قليل المال، وكان يهوى أن يرى ابن أخيه محمدًا ﷺ يعيش عيشة سوية، لا يشعر فيها بضائقات الحياة وشظف العيش مع عياله.

تزويج محمد ﷺ خديجة بعد اتجاره في مالها:

وكان أبو طالب يعرف أن خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية، الطاهرة الكاملة، وهي كثيرة المال واسعة الثراء، تقارض بعض من يقوم لها على الاتجار بمالها، وعرض على ابن أخيه محمد ﷺ أن يقوم على هذه المقارضة فيتجر لها في مالها على جُعل تجعله له أفضل مما تعطي غيره، وأشار عليه بالذهاب إليها، وعَرْض نفسه عليها للقيام بمقارضتها في الاتجار بمالها، فأبت عليه عزة نفسه أن يقف في حياته من أجل كسب دنيوي موقفًا يشعر فيه بشيء ينزل به عن تساميه بالعزة والكرامة، وقرأ عمه على وجهه ذلك، فأرسل إلى خديجة في شأنه، فأسرعت مستجيبة تلبي طلب أبي طالب لما كانت تسمعه عن أمانة محمد ﷺ وصدقه وكرم أخلاقه، وأضعفت له في مكافأته على عمله في تجارتها، وكان ذلك مفتاحًا لخزائن الغيب التي ادخرها الله لمحمد ﷺ، وصدَّق الخُبْر الخَبَر، وعرفت خديجة عن محمد ﷺ ما لم يعرفه أحد غيرها، فخطبته لنفسها، وزوجه بها عمه أبو طالب، وأصدقها

عنه صداق مثلها من العليّات الشريفات، فكانت معه ﷺ كما كانت وفاء، وإخلاصًا، وحبًا، ومواساة ثم إيمانًا ويقينًا، وتطلعًا وفراسة قبل الرسالة وبعدها، حتى توفيت -رضي الله عنها-، حميدة رضية مرضية، مكرمة، لم يتزوج رسول الله ﷺ معها غيرها في مدى خمسة وعشرين عامًا عاشتها في كنف الزوجية معه، إكرامًا لها، وحفاظًا على حبها، وصيانة لقلبها من الغَيْرة ونكد الضرائر، دلالة على عظم قدرها عنده ﷺ، ومزيد فضلها.

مواقف أبي طالب في حماية محمد ﷺ وهو يبلغ رسالة ربه:

ولما بعث الله محمدًا ﷺ رسولًا إلى الناس كافة وقف ملأ الشرك والوثنية موقف العناد المستكبر، والمكابرة العاتية، والفجور الطاغي، فكذّبوه، وآذَوه وائتمروا به ليقتلوا، ووقف عمه أبو طالب يذود عنه، وينصره ويحميه، بكل ما أوتي من وسيلة وقوة، جعل نحره دون نحره، وحياته فداء لحياته كما فصلنا ذلك في مواقفه الكثيرة، فلم ينالوا من رسول الله ﷺ نيلا إلا في غيبة من عمه ونصيره، ورسول الله ﷺ دائب النهوض في نشر دعوته إلى الله وتوحيده، لا يصده عن سيره شيء، فلا يهاب وعيدًا ولا يرهب زمجرة، واشتد حقد المشركين، وتعددت شكاواهم إلى أبي طالب من ابن أخيه

الذي سفَّه أحلامهم، وضلَّل آباءهم، وسب آلهتهم، وعاب ديانتهم، فكان أبو طالب يردهم ردًا رفيقًا ويكلم النبي ﷺ فيما كلَّموه في شأنه، فيرى منه عزيمة ماضية، لا يصدها عن وجهها صاد، ولا يردها عن مضيها راد، إيمانًا منه ﷺ برسالة نفسه، ووجوب تبليغها إلى الناس، مهما تكن الحوائل والعقبات، فكانت هذه القوة القاهرة في عزيمة رسول الله ﷺ تنفض عن كاهل أبي طالب ما يثقله من أعباء الذود عن ابن أخيه في دعوته ورسالته، وتغسل عن قلبه ما يعتريه من الضعف والوهن أمام تألب قومه عليه، وتجمعهم ضده فيشتد في نصرة رسول الله ﷺ، ويعلن ذلك في شعره القوي الرصين، لا يبالي غضبة ملأ الشرك وتهديدهم.

ولأبي طالب في مواقفه هذه قصائد مشهورة تعد من غرر أجود الشعر العربي في أقوى عصوره، ومن أشهر ذلك لاميته الذائعة التي يقول فيها في مدح رسول الله ﷺ وحوطه وحمايته وحقيقة ما جاء به من رسالة خالدة.

كذبتم - وبيت الله - نُبْزَى محمدًا
ولمَّا نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرّع حوله
ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وينهض قوم في الحديد إليكم
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وما ترك قوم - لا أبا لك - سيدًا
يحوط الذمار غير ذرب مواكل

إلى أن قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمةً للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمري لقد كلفت وجدًا بأحمد
وإخوته دأب المحب المواصل

إلى أن قال:

فلا زال في الدنيا جمالًا لأهلها
وزينًا لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أيُّ مؤمَّل
إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم، رشيد عادل غير طائش
يوالي إلهًا ليس عنه بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب
لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

إلى أن قال:

فأصبح فينا أحمد في أرومة
تقصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته
ودافعت عنه بالذرى والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره
وأظهر دينًا حقه غير باطل

ومن قوله في قصيدة طويلة:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا

هذه صورة من مواقف أبي طالب في حياطته رسول الله ﷺ وحمايته ومناصرته والغضب له، إذا ضمت إلى مواقفه العظيمة منذ كفالته له ﷺ شابًا يافعًا، وغلامًا فارهًا، ورجلًا مسددًا عاملًا في الحياة، ثم نبيًا ورسولًا، ائتلفت من ذلك كله صورة كاملة في إطار كفاح أبي طالب ونضاله دونه ﷺ للذود عنه وحمايته.

وقد توج أبو طالب مواقفه بأشرف موقف، وأنبله، وأشجعه، وأقواه، وأوجعه لقلوب الملأ الوثني عن طغاة المشركين.

ذلك هو موقفه في النهوض لكبح جماح المستكبرين المتمردين من عتاة الكفر وقد تقاسموا على قتل محمد ﷺ

علانيـة، وموقفـه للقضاء على صحيفة الفجـور التي تعاهدت فيها قريش على استئصال شأفة بني عبد مناف صبرًا في حصار الشـعب لوقوفهـم جانب أبـي طالب، ينصرونه فـي مناصرته لمحمد ﷺ بتجميعه رجالات قومه من بني هاشم الذين انضم إليهم بنو المطلب، ودخلوا معهم في هذا الحصار الظلوم مدة ثـلاث سـنين، وبتدبيره حياطة رسـول الله ﷺ والحفاظ عليه وحمايتـه من الاغتيال والفتك به، حتـى قضى الله أمره بنقض الصحيفة الفاجرة، وتمزيقها شر ممزق.

وخرج أبو طالب مع قومه ومن ناصرهم بخروج رسـول الله ﷺ من الشعب ظافرًا منصورًا، مؤيدًا من الله -تعالى- بما أيده به من معجزاته القاهرة، وآياته الباهرة، يتابع سـيره في نشـر دعوته وتبليغ رسـالته إلـى الناس في محافلهـم ومجتمعاتهم ومواسـمهم وأسـواقهم، يعرضها على كل شـريف قوم يذكر لـه، لا يناله من الأذى ما يصده عـن قصده وغايته، تهيبًا لعمه وناصره أبي طالب، السيد المطاع في قومه، القوي في حميته وحمايته، الشجاع في غضباته، الجسور في مواقفه.

كانت خديجة وأبو طالب دعامتين من دعائم سـير الرسالة في أزماتها

وهكذا كان رسـول الله ﷺ في مدى عشر سنوات من نبوته بين حماية قوية من قومه بزعامة عمه أبي طالب، وبين سكون

ووفاء، وصدق مؤازرة من زوجه الأمينة الوفية السـيدة خديجة -رضي الله عنها-.

ذاك يدفـع عنـه الأذى وينصـره، ويحوطـه ويحميه، وهو يجـول بدعوتـه بين مجتمعـات الأقـوام، وتلك تمسـح عنه بحنانهـا ووفائها وصـدق مؤازرتها -إذا عـاد إليها من جولاته داعيًا إلى الله- ما عسـى أن يكون قد ألم به من مسـاقط جهالة الجهلاء، أو من سـفاهة السـفهاء، حتى قضى الله -عز وجل- قضـاءه الذي لا يرد، وتوفيت الزوجـة الوفية الصديقة الأمينة خديجة -رضي الله عنها- بعيد الخروج من الحصار الظالم، ثم أعقبت وفاتها وفاة حامي حمى الحمية القومية، الناصر القوي لرسـول الله ﷺ، وهو في عنفوان النضال ومرارة الكفاح بأيام قلائل، فاجتمع على رسول الله ﷺ من الهم والحزن بوفاتيهما على التوالي ما لا تطيق حمله الراسـيات الشوامخ، وطمع في الإساءة إليه اليوم من لم يكن بالأمس طامعًا، ونال منه اليوم من لم يكن بالأمس نائلًا، ولهذا سمي عام وفاتهما عام الحزن.

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد قبـل الهجرة بثلاث سـنين، وكانـت خديجة وزيـر صدق على الإسـلام، وكان أبو طالب عضدًا وناصـرًا على قومه، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به

في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا، فدخل رسول الله ﷺ بيته يقول: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب» وعند البيهقي فرجع إلى بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول لها: «أي بنية! لا تبكي، فإن الله -عز وجل- مانع أباك» وفي حديث هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعين عني حتى مات أبو طالب».

ولم ينس رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب فضل مواقفه في الذود عنه وحياطته ونصره، وكان ﷺ يحب إسلامه، ولكن الهداية بيد الله تعالى يؤتيها من يشاء بفضله، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

(القصص: ٥٦)

روى مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب منتعلًا بنعلين يغلي منهما دماغه» ولم يألُهُ دعوة إلى الإسلام رجاء أن يوفق فيؤمن، غير أن القدر كان قد سبق بما شاء الله، روى البخاري في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته

الوفاة دخل عليه النبي ﷺ -وعنده أبو جهل- فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا بكلماته حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبدالمطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه» فنزلت:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

(التوبة: ١١٣)

ونزلت:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(القصص: ٥٦)

وصية أبي طالب لقومه:

وقد ظل أبو طالب على حدبه وحرصه على رسول الله ﷺ إلى آخر لحظة من حياته، بل أراد أن يبقى أثر ذلك له بعد وفاته، قال السهيلي في الروض: وحُكي عن هشام بن السائب أو ابنه أنه قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه،

وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبًا إلا أحرزتموه، ولا شرفًا إلا أدركتموه، فلكم بذلكم على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم ألب[٢٦]، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البَنِيَّة فإن فيها مرضاة للرب، وقوامًا للمعاش، وثباتًا للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل وسعة في العدد، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكة القرون قبلكم، أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام. وإني أوصيكم بمحمدٍ خيرًا، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاء بأمر قبله الجَنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وايم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا، ودورها خرابًا، وضعفاؤها أربابًا، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم

(٢٦) أي مجتمعين من كل جانب. (المجلة).

إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها، وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز[٢٧]، ولدفعت عنه الدواهي. ثم هلك أبو طالب.

(٢٧) الهزاهز: الفتن الكبرى التي تهز الناس وتبتليهم. (المجلة).

سعي رسول الله ﷺ إلى الطائف لتبليغ رسالته

بعد وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ الذي كان القوة البشرية القاهرة في حمايته ﷺ، والذود عنه، ومناصرته، خلا الجو لأحلاس الشرك، وفجار الوثنية في مكة التي أظلمت فجاجها أمام الدعوة إلى الله تعالى، وضاقت بمواسمها، وأسواقها، ومحافلها ومجتمعاتها، وأنديتها ومضارب القبائل في بطحائها على رسول الله ﷺ، فلم يجد فيها متنفسًا لدعوته، ولا منتجعًا لتبليغ رسالته، لأن سفهاء قريش، ومن ورائهم من أهل العتو والطغيان طمعوا فيما لم يكونوا يطمعون فيه حياة أبي طالب، ونالوا من رسول الله ﷺ ما لم يكونوا نائليه منه، وهم يرون عمه أبا طالب ينهض بحميته الهاشمية لحمايته ومناصرته.

وكان لا بد لرسول الله ﷺ من السير قدمًا في القيام بنشر دعوته وتبليغ رسالة ربه، وأرض الله واسعة وهي بجميع أرجائها ومواطنها منازل للدعوة إلى الحق والهدى، وأينما يشرق النور فهناك الأفق الذي تطلع منه شمس الهداية، فلتذهب الدعوة إلى الله عز وجل مذاهبها في الأرض، حيث يتاح لها، ولتفارق مكة إلى عودة ظافرة، تطهرها من أرجاس الفجور في أشباح البأو العنيد والاستكبار البليد.

والنبي ﷺ في حدود أقصى استطاعته، وأبلغ مدى طاقته عليه أن يدأب في تبليغ وحي الله تعالى إلى عباد الله، لا يني،

ولا يتوقف، فإذا سدّت منافذ التبليغ في جانب من الأرض بقيت سائر الجوانب والمواطن مَهْيَعًا يجب سلوكه.

فمكة بمن فيها من العتاة المعاندين، والفجار المستكبرين، وما فيها من مهانة الشرك، وأوثانه أبت أن تستجيب إلى الإيمان بدعوة الحق، وأبت أن تقبل هداية الله، وأعرضت مدبرة ماكرة، ووقفت سدًا عنيدًا دون نشر الدعوة إلى الحق والخير، بل طغت وتجاوزت كل حد من العتو والفجور، ودبرت مؤتمرة لتفتك بالنبي ﷺ وتقتله غيلة وغدرًا، لا لشيء إلا لأنه ﷺ يدعوهم إلى أن يقولوا ربنا الله وحده، لا ندّ له ولا شريك في ملكه.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢)

سوء رد زعماء الطائف على رسول الله ﷺ:

ومن ثم سعى رسول الله ﷺ إلى الطائف، وفيها (ثقيف) وكانوا - كما قال المقريزي - أخواله، ولم تكن بينه وبينهم عداوة، يلتمس من أهلها النصرة والمنعة والاستجابة إلى توحيد الله وهدايته، فأقام فيهم ﷺ شهرًا، يجتمع بساداتهم وأشرافهم، يدعوهم إلى قبول الحق ونصرته، قال ابن إسحاق: خرج إليها وحده، وقال محمد بن سعد: كان معه مولاه وحبه زيد بن حارثة، وكان يقيه بنفسه، ولما انتهى ﷺ

من سبرها[٢٨] فلم يجبه إلى ما دعا إليه أحد عمد إلى نفر ثلاثة إخوة من سادتها وأشرافها، عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من النصرة على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فردوا عليه أقبح رد، في عنجهية جافية، وجهالة جاهلة، وغرور مستكبر، فقال له أحدهم: هو يمرط ـ أي يسرق ـ أثواب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

ثم قالوا له، وقد خافوا على أحداثهم منه: يا محمد اخرج من بلدنا، والحق بمحابك من الأرض، فقام رسول الله ﷺ، وقد يئس من خيرهم وخير بلدهم وطلب إليهم إذ تنكروا له ولدعوته ونصرته، وأساءوا الرد عليه أن يكتموا أمره وأمرهم، وما كان منهم إليه من الغلظة وسوء الخلق وتنكب سبل المروءة والنخوة العربية، لئلا يبلغ الخبر قريشًا فيزئرهم عليه، ويشمتوا به، ويزيدهم عتوًا وفجورًا، فكانوا في هذه

---

(٢٨) سبرها: اختبارها وتعرف حالها. (المجلة).

ألأم قوم في مكرمة عربية؛ إذ أفشوا في قومهم ما كان منهم إليه من سوء اللقاء، وزادوا في مقابحهم فأغروا به عبدانهم وسفهاءهم، يسبونه، ويصيحون به سخرية واستهزاء، حتى جمعوا عليه غوغاءهم وأشرارهم ودُعَّارهم، وقعدوا له صفين على طريقه وهو ﷺ خارج من بلدهم، فلما مر بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه، ولا يضعهما إلا رضخوه بالحجارة، حتى اختضبت نعلاه بالدماء.

وقد أمعنوا في لؤم الفجور، فكانوا إذا أزلقته الحجارة، واشتد به الألم قعد إلى الأرض ليتنسم شيئًا من الراحة، فيأخذون بعضديه فيقيمونه إمعانًا في القسوة والفجور، فإذا مشى عادوا إلى بشاعتهم في الإيذاء ورميه بالحجارة وهم يضحكون، حتى خلص منهم، إذ عمد إلى حائط من حوائط الطائف، واستظل بظل حبلة من شجر العنب، وهو مكروب موجع، تسيل رجلاه دمًا.

تحرك الرحم عند عتبة وشيبة:

وإذا في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما ﷺ كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله، فلما رأياه تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عداس، فقال له: خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق،

ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس ما أمراه به، ثم أقبل على رسول الله ﷺ حتى وضع الطبق وفيه قطف العنب بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده ليأكل قال: «بسم الله» ثم أكل.

قصة عداس مع رسول الله ﷺ على مشهد من عتبة وشيبة:

فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال عداس: نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: «من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى» قال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى، والله لقد خرجت من نينوى، وما فيها عشرة يعرفون ما متى، فمن أين عرفته وأنت أمي من أمة أمية؟ قال: «ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي» فأكب عداس على الرسول ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وعند البيهقي في الدلائل: وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدًا، فقال لعداس يبلغه رسالة ربه: «أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى» فلما أخبره ﷺ بما أوحى الله -عز وجل- من شأن يونس بن متى خر عداس ساجدًا لرسول الله ﷺ، وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء، فلما أبصر عتبة وشيبة

ما يصنع غلامهما سكنا حتى جاءهما، فقالا له: ما شأنك سجدت لهذا الرجل وقبلت قدميه، ولم نرك فعلت هذا بأحد منا؟ قال عداس: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمر عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا، يدعى يونس بن متى، فضحكا به، وقالا له: لا يفتننك عن دينك، فدينك خير من دينه.

وفي روض السهيلي أن عداسًا لما أراد سيداه الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما فقال: أقتال ذلك الرجل الذي رأيت بحائطكما تريدان؟ والله ما تقوم له الجبال!

كان موقف اللؤم من كفار ثقيف أشد ما لقي رسول الله ﷺ:

وفي صحيح البخاري في بدء الخلق ومسلم في المغازي والنسائي في البعوث من حديث عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال النبي ﷺ: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك

وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك ربك لتأمرني بما شئت وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا».

وقوله في الحديث (يوم العقبة) قال الزرقاني في شرح (المواهب) جزم المصنف بأنها التي في منى، وفيه ما فيه، فأين منى والطائف؟ ولذا قال شيخنا: لعل المراد بها هنا موضع مخصوص، اجتمع فيه بعبد ياليل لا عقبة منى التي اجتمع فيها مع الأنصار.

دعاء كشف الكرب:

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال -فيما ذكر لي-:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات،

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

قال الزرقاني في شرح المواهب: ورواه – أي هذا الدعاء – الطبراني في كتاب (الدعاء) وكذا في معجمه الكبير عن عبدالله بن جعفر، وقال: وهذا مرسل، لأن عبدالله بن جعفر ولد بالحبشة، فلم يدرك ما حدث به لقوله: لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ ماشيًا إلى الطائف، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه فأتى ظل شجرة من عنب، فصلى ركعتين، ثم قال: «اللهم إليك أشكو» فذكر الدعاء بنحو ما ذكره ابن إسحاق.

جبن الأخنس وسهيل وشجاعة المطعم:

ولما انصرف ﷺ عائدًا إلى مكة بعد أن أقام بنخلة أيامًا ذهب إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فكعَّ الأخنس فرقًا من قريش، فأبى أن يكون صاحب هذا الشرف العربي، وتعلل بعذر ملفوف في غلالات الجبن والرعب، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث ﷺ إلى سهيل بن عمرو يطلب إليه أن يجيره، فاعتذر سهيل كذلك بما لم يكن له فيه معتذر، فقال: إن بني عمرو لا تجير على بني كعب، فبعث ﷺ إلى المطعم بن عدي، فأجابه إلى ما يريد

في نخوة وشجاعة، ثم تسلح المطعم هو وأهل بيته، وخرجوا في أهبتهم إلى المسجد، فقال له أبو سفيان بن حرب، وقد رأى منه استعداده القتالي: أمجير أم تابع؟ فقال المطعم: بل مجير، قال أبو سفيان: إذن لا تخفر، قد أجرنا من أجرت، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله.

قال الزرقاني: وفي جواب الأخنس وسهيل نظر؛ لأنهما لو لم يكونا ممن يجير لما سألهما رسول الله ﷺ ذلك - أي لمعرفته ﷺ لأعراف قومه وعاداتهم- كيف وعامر الذي هو جد سهيل، وكعب أخوان، أبوهما لؤي، فهما سواء في مكانهما، يجير أحدهما على الآخر.

وفاء لو وجد موضعًا للخير:

وقد حفظ ﷺ للمطعم هذه البادرة المعبرة عن شجاعته ونخوته، وتغاضى رسول الله ﷺ عن سيئاته، لا سيما شتمه له ﷺ صبيحة الإسراء بقوله: «كل أمرك قبل اليوم كان أممًا، هو يشهد أنك كاذب»، فقال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيًا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له».

وقد تحير بعض الناس في فهم حكمة دخول النبي ﷺ مكة في جوار كافر، كما تحيروا في فهم قوله ﷺ في المواسم: «من

يئويني حتى أبلغ رسالة ربي؟» لأن النبي ﷺ سيد المتوكلين على الله وسيد الموقنين بنصر الله له وحمايته.

وهؤلاء غفلوا عن أن النبي ﷺ بشر من الناس، احتاج إلى أن ينزل الله عليه قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾

(المائدة: ٦٧)

وقد كان قبل نزولها يتخذ حرسًا، فلما نزلت صرف الحرس، كما غفلوا عن أن النبي ﷺ مشرع، وله أصحاب سيموا من العذاب ألوانًا، فلو لم يكن ﷺ بفعله أسوة لهم لتعرضوا للفناء ولوقف سير الدعوة إلى الله، ولما أتيح له أن يلقى الأنصار ويبايعهم على إيوائه ونصرته، فكانوا كتيبة الإسلام الأولى التي حقق الله على يديها أعظم انتصار فتح أمام الدعوة أبواب الدنيا، ولم يكن ذلك لينقص من يقين رسول الله ﷺ، وصدق اعتماده على الله شيئًا.

وهذه المرحلة المكية للدعوة كانت مرحلة كفاح ونضال تربى في أحضانها السابقون الأولون الذين ذاقوا مرارة الابتلاء؛ وذاقوا معها حلاوة الصبر والاحتمال، ولم تكن مرحلة معجزات تقهر الناس على الإيمان، وقد أبى رسول الله ﷺ ما جاء به إليه ملك الجبال من أمر الله له أن يكون في

طوع أمر رسول الله ﷺ بإطباق الأخشبين على أعداء الله الذين بالغوا في إيذائه ﷺ وقال: «ولكني آني بهم؛ ليخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

وقد ذهب ابن الجوزي في إبراز حكمة الرضا بجوار الكافر، وحكمة قوله ﷺ في المواسم: «من يئويني حتى أبلغ رسالة ربي؟» مذهبًا لا يخلوا من غموض متعسف، فقد ذكر لذلك حكمتين: إحداهما اختبار المبتلى، أي معاملته معاملة من يختبر، ليسكن قلبه إلى الرضا بالبلاء، فيؤدي القلب ما كلف به من ذلك، والحكمة الثانية بث الشبهة في خلال الحجج لثبات المجتهد في دفع الشبهة.

حفاوة الحبيب بالحبيب
الإسراء والمعراج أعظم آيات الإعجاز الكوني لنبينا محمد ﷺ

بحث وتحقيق في رواياتها وأحداثها

هذه الآية العظيمة هي المعجزة الفريدة الخطيرة الحسية المادية التي كُتب بمداد نورها الحرف الأول في سطر الحفاوة الربانية الذي افتتحت به نفحات الفرج وانكشاف غمم المحن والبلاء، وضائقات المعوقات التي كان يقيمها طغاة الشرك وعتاولة الوثنية أمام رسول الله ﷺ في طريق تبليغ رسالته ونشر دعوته، دعوة الهدى والنور، إعلاء لكلمة الله، كلمة الحق والعدل والخير والإصلاح، والإخاء بين أبناء الإنسانية كافة، وزرع المحبة بين الناس من كل جنس ولون وجيل أينما وجدوا من أرض الله، لأن هذه الآية العظيمة جاءت بعد مقتضياتها التي كان من أظهرها عام الحزن، ذلك العام الذي ابتلي فيه رسول الله ﷺ بفقد زوجه ومأنس قلبه ومطمئن فؤاده، وزيرة الصدق له في دياجير المحن، وهي تخفف عنه آلامه، وتمسح عن نفسه ما كان يلم به من حزن لما يلقاه من عتو الشرك وفجور الوثنية على أيدي أحلاسها من المستكبرين

الطغاة ربائب الجهل الظلوم من ملأ قريش الذين كان يدعوهم إلى النجاة ويأبون إلا أن يكون مأواهم النار، لا يخفف عنهم من عذابها وما هم منها بمخرجين.

تلك زوجه الصديقة المصدقة الأمينة الطاهرة، سيدة نساء العالمين، السيدة خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها-.

ثم بفقد الحفي القوي، الحمي الجريء، المطاع في قومه، العظيم في جاهليته، الحدب المدافع عن رسول الله ﷺ حمية قومية، العزيز في حسبه، الفارع في نسبه، الذي إذا دعا لنضال الحماية لدفع مذلة الضيم أجابته السيوف المنافية الهاشمية شاكية تأبى أن تقر في أغمادها حتى يقضي بينها وبين من يتلمظ لعداوتها ويتعرض لملاقاتها وسخطها.

ذلك الفحل لا يقدع أنفه[٢٩]، ولا يطمع في مهادنته إذا استغضب، ولا ترام مداهنته إذا خودع: أبو طالب بن عبدالمطلب سيد البطحاء، عم رسول الله ﷺ صنو أبيه، صاحب المواقف التي أرعبت أفئدة ملأ قريش، وروعت أمنهم، وذهبت باستقرارهم، وأذلت استكبارهم دفاعًا عن سياج العزة الهاشمية التي أبى عليها تعززها بالسؤدد والمجد والشرف في العرب قاطبة أن تقبل ضيمًا في شخص وحيد الدنيا في

(٢٩) مثلٌ يضرب للكريم العزيز في قومه الذي لا يُردّ قوله. (المجلة).

عليا المكارم محمد الأمين ﷺ، حفيها، ونور حياتها ولباب أفئدتها، يهبون إذا أهبهم شيخهم أبو طالب، ويسكنون متحفزين إذا سكنهم، فهم طوع إرادته ورهن إشارته.

كانت هاتان المحنتان المتعاقبتان في زمن يسير من أشد ما لقي رسول ﷺ من أحزان الدنيا، لأنه ﷺ فقد بفقدهما حنان الأنس، وعاطفة الحب في الزوج المحبة الأمينة، وفقد القوة الحامية والحدب في عمه الذي وقف إلى جانبه يدافع عنه ويقوي عزيمته، ويرد عنه سفه السفهاء، وعتو الطغاة وفجور الفجار، لاسيما وقد كان فقدهما عقيب محنة مريرة قاسية، تجلت فيها بشاعة اللؤم العتي وفظاعة الحقد الوثني، والاستكبار العنيد، تلك هي محنة الحصار الاقتصادي، والمقاطعة الصارمة، والإجاعة المميتة ثلاث سنين، بين البؤس والحرمان وأنين الأطفال ودموع النساء، وهذا الحصار الذي تعاهدت عليه قريش وأفقدها كل عاطفة حيوانية، بله إنسانية كان أشد على النبي ﷺ وأصحابه - ومن دخل معهم حمية من الهاشميين والمطلبيين إيلامًا ومضاضة وقسوة - من سني يوسف، وكانت أيامها أظلم الحوالك في دنيا الظلم والفجور، حتى أكل المحصورون ما لم يؤكل، وصبروا على ما لم يصبر عليه الصبَّر من أولي البلاء والمحن، مع ما سبق ذلك من سفه سفهاء قريش وفجور ملئها في إيذاء النبي ﷺ

وأصحابه في صور متعددة وأشكال مختلفة تدل على حنق مغيظ وغيظ حانق حقود.

وكان من آثار فقد مأنس الوجدان في تبليغ الرسالة، وفقد قوة الحمية القومية أن خرج رسول الله ﷺ بعد يأسه من استجابة طغاة الوثنية البليدة لدعوة الحق والهدى، ويأسه ﷺ أن يتركوه يبلغ رسالات ربه ويخلُّوا بينه وبين الناس في محافلهم وأسواقهم ومواسم تجمعاتهم ليدعوهم إلى الله الواحد الأحد الذي يجب أن يفرد بإخلاص العبادة - إلى الطائف حيث ثقيف ولفها ليئووه وينصروه حتى يبلغ رسالته، فلقي منهم أفرادًا وجماعات السفه الطائش، ولؤم الضيافة وشراسة الخلق ورذالة الطبع وخسة المروءة، فقد فظع بكبرائهم أن يسمعوا منه أنه رسول الله، وأنه يدعو إلى توحيد الله، وخلع الأصنام والأوثان، فأساءوا رده من أول وهلة، وتنمروا له من أول كلمة، وأعلنوه بالخروج من بلدهم، وسلطوا عليه عبدانهم وغلمانهم وسائر سفهائهم، فوقفوا له في طريق خروجه سماطين(٣٠)، يرمونه بالحجارة حتى أعيا من سوء ما لقي، فإذا قعد ليستريح من أوصاب الآلام أخذوا بضَبُعَيه وأقاموه إمعانًا في دناءة الهمة ولؤم الطباع، حتى بلغ

(٣٠) صفين. (المجلة).

مأمنًا يهابه جبناء ثقيف، فرجعوا عنه، وعاد ﷺ إلى مكة وملؤها وسفهاؤها على أخبث ما كانوا من غيظ حقود.

وهكذا تجمعت غمامات الآلام عليه ﷺ وتكاثفت سحب العوائق أمام نهوضه بتبليغ رسالة ربه، وانتشر الشر في آفاق الحياة واحلولك الظلام في جنباتها، وتقاصر الأمل عن غايته، وضاقت حلقات العزائم عند كثير، واستحكم الشر في نفوس الشريرين، وتثاءب اليأس المظلم، وبقي رسول الله ﷺ وحيدًا يقلب وجهه في السماء انتظارًا للفرج وترقبًا لانجلاء غمامات المحن والبلايا.

لقد كانت هذه المرحلة الكفاحية غير المتكافئة تمحيصًا للمؤمنين، ودروسًا لتربية صدق العزائم عند طلائع السابقين، وإعدادًا لكتائب الدعاة إلى الله تعالى في التأسي برسول الله ﷺ، صبرًا جميلًا، واحتمالًا لنوازل البلاء، وتوجيهًا للأحداث بفكر حكيم محكم، وسياسة رحيمة، تجعل من العدو صديقًا حميمًا، ومن السفيه الجهول حكيمًا عليمًا.

نداء القرب وتباشير النصر في ليلة الإسراء:

وهنا سمع الأمين الحبيب محمد خاتم النبيين ﷺ صوت الأمل يجري في آفاق الحياة نغمًا نشوان بحب الحق، وصريف أقلام الغيب في الملأ الأعلى يجري باستقدام الحبيب إلى

سـدة[٣١] التشريف الأعظم، والتكريم الأكرم، بأجل ما شرف به المشرفون، ونزل الأمين جبريل -عليه السلام- سفيرًا إلى الحبيب، يحمل إليه رسـالة الدعـوة الطلبية الحفية المباركة، وأشـرقت شـمس الفرج تملأ بأشـعتها السـماوات والأرض، وتوالت تباشير النصر في بدء بيعات اليثربيين الذين ادخرهم الله تعالى لنصرة دينه وتأييد نبيه ﷺ حتى تمت البيعة الكبرى التي كانت شـجًا فـي حلاقيم عتاة المشـركين من ملأ قريش وطغاتهم، فغصوا بها حقـدًا حانقًا تمثل في جنون تصرفاتهم مـع أنصار الله الذين بايعوا رسـول ﷺ على أن يكونوا كتائب دعوته جهادًا في سبيلها وجندًا لتبليغ رسالته.

وفي خضم هذه التباشير أسرى الله بعبده محمد ﷺ، وكان هو سبحانه وتعالى الذي أخذ بيد الحبيب فأبلغه منازل القرب كما شاء، وأحله مكانة لا مطمع لمخلوق فيها، بله فوقها كما أراد -عـز شـأنه-، وأراه من آياته وعجائـب ملكه وملكوته ما لم يره أحدًا من خلقه، وعلمه ما لم يعلم، وزاده رفعة وشـرفًا، وأعطاه لنفسـه ولأمته ما أرضى فؤاده وأثلـج قلبه وبلج بأنوار المعـارف الخاصـة روحه، وجعلـه أعلم العالميـن بجلال الله وعظمة سـلطانه، وخصـه من الحفاوة والحباء ما لا تسـتطيع

(٣١) السدة: الرتبة. (المجلة).

الأقلام تسطيره، فهدى به وهدى له، وجعل له من لدنه سلطانًا نصيرًا.

وهكذا كانت آية الإسـراء في جوها الخاص والعام بلسـمًا لجـراح بشـرية محمـد ﷺ التـي نالها أعـداء الحـق والخير بالإيـذاء وكانت سـراجًا وهاجًا أضاء الطريق أمـام دعوته إلى الله الحـق المبيـن، وكانت نورًا تبلج من آفـاق العناية الربانية علمًا ومعرفة، وشـرفًا وفضلًا، ليقيم له ﷺ ولدعوته ورسالته الخالدة الخاتمة معالم الطريق الذي أسس على الكفاح الصبور في سـبيل الحق والخير والهدى والإصلاح، بغير إعجاز مادي يكره الناس على الاستجابة إلى الإيمان بالدعوة، ليكون ذلك رسـمًا لطريق الدعوة إلى الله أينمـا كانت، ومعلما للدعاة إلى الله حيثما كانوا وكيفما كانوا.

وهكـذا كانـت أيضًا آية الإسـراء في حقيقتهـا ومقاصدها صـورة جامعة للقـدوة في العلـم والمعرفـة، والعمل لإصلاح الحياة، وبشـرى بإنقضاء عهد البلاء والمحـن، وابتداء عهد البنـاء والمعرفـة، ومطالعة آيـات الله في ملكوت السـماوات والأرض المسـخرة للإنسـان، وتحقيقًـا لخلافـة الأمـة التـي يربيها نبي الإسلام ﷺ بعقيدته وتعبداته وشرائعه وأحكامه، وسياسـته، وآدابه، ونظمه ومناهجه في الحياة، لتقيم من هذه العقائـد والتعبدات والشـرائع والآداب والنظم والمناهج بناء

شامخًا تأوي إليه الإنسانية إخوة متحابين لتكون خير أمة أخرجت من ضمير الغيب للناس.

آية الإسراء تشريف وتكريم لسيد المرسلين:

ومن ثم كانت آية الإسراء أشرف آية مادية حسية أوتيها نبي من رسل الله، وهي أجل ما أعطيه محمد الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين من الآيات الحسية والكرامات المادية، وهي في فضلها وعظمة الحفاوة تالية للقرآن الكريم في روعة دلالتها على صدق نبوة محمد ﷺ وعموم رسالته وخلودها وما له عند الله من مكانة ورفعة شأن، مما فضل به على جميع الأنبياء والمرسلين بعد القرآن العظيم.

وقد كانت آيات الأنبياء والمرسلين التي جعلها الله برهان صدقهم في دعواهم أنهم رسل من عند الله إلى أقوامهم، يدعونهم إلى توحيد الله وإلى الهدى والخير - آيات مادية حسية تخرق نواميس نظام الترابط المادي بصورة قاهرة لا طاقة للبشر ولو اجتمعوا بعلومهم وأفكارهم وتجاربهم وحيلهم على معارضتها بوسائلهم البشرية المادية، فلا يجدون ذريعة لردها وأعناقهم لها خاضعة إلا المكابرة والعناد.

وقد بينا في مبحث (محمد من نبعته إلى بعثته)، أن آيات الأنبياء والمرسلين ومعجزاتهم إنما تجري على مقتضى سنن إلهية خاصة، لا سبيل لتحكم العقل فيها وفي إدراك حقائقها

وتعرف أسبابها، والعقل بمعزل تام عن تحكيمه في ثبوتها، وأوضحنا أن مدار التصديق بها على صحة ثبوتها هو الإخبار بها في واقع الوجود بسند صحيح، لا يعتريه ريب، ولا يعارض متنه أصل أثبت منه وأدخل في أصول الإسلام.

آيات الأنبياء والمرسلين كانت حسية مادية كما ذكرها القرآن العظيم:

وقد ضرب الله تعالى المثل في القرآن لهذه الآيات الحسية المادية التي أوتيها من ذكروا في القرآن من أكابر المرسلين، وكان من أبينها وأكثرها ذكرًا آيات موسى وعيسى -عليهما السلام-، وآياتهما أهدى الآيات الحسية المادية سبيلًا وأظهرها إعجازًا، وأقواها حجة، وأبلغها أثرًا، فعصا موسى -عليه السلام-، لها خصائص سائر العصيّ في بُعدها عن حلول نوع من الحياة فيها، وقد أخبر عنها موسى حين سئل من رب العزة - سؤال تأنيس وتمهيد، لا سؤال استخبار - بقوله:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه: ١٧)

بما يعلمه عنها من حقيقتها الأصيلة ومن الأسباب التي اتخذها لها فقال:

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ (طه: ١٨)

من كل مأرب تؤديه عصا، فيدفع بها عن نفسه صولة عدو، ويقيمها عمودًا ليسدل عليها ما يقيه الحر والبرد، ولكنها حينما أريد لها أن تجري على السنن الإلهية الخاصة خرجت عن طبيعة العصا التي لا تحلها الحياة إلى طبيعة أخرى قابلة للحياة، فانقلبت جانًا يتحرك، وثعبانا يلقف ما يأفك سحرة فرعون بكل ما فيه من وسائل مادية، وإلى أن ضرب بها موسى البحر فانفلق فلقتين، فكانت كل فلقة منه كالطود العظيم في قوة تماسك ذراته، والماء طبيعة سيَّالة يستحيل عليه هذا التماسك في نواميس السنن العامة للكون وإلى أن يضرب بها الحجر الصلد فينبجس منه الماء اثنتي عشرة عينًا لكل قوم من بني إسرائيل شرب معلوم منها.

وتصوير عيسى -عليه السلام- قطعة من الطين الذي له خصائص الطين، بكل ما فيها من بعد ومنافاة للحياة على هيئة طائر، ثم ينفخ فيه فيصير طائرًا بإذن الله، يتحرك، ويطير، ويذهب ويجيء، ويأكل ويشرب، ويغرد ويرفرف ومسه بيده الأكمه الذي لم ير النور ببصره قط يجعله بصيرًا بإذن الله ومسحه على الأبرص الذي ابتلي بداء عجز عنه طب عصره يشفيه من مرضه العضال، ونداؤه الميت الذي غبر عليه من الزمن ما غبر يقيمه من قبره بإذن الله إنسانًا حيًا، يتحرك ويمشي ويتكلم ويفكر ويخبر ويرشد ويسترشد والمقصود

بذكر هذه الآيات التي وقعت على يد هذين الرسولين الكريمين بيان أن سنن الله في الكون لا يقيدها نظام الترابط الكوني في نواميس السنن العامة، وهكذا كانت آيات الأنبياء والرسل قبل رسالة محمد ﷺ حسية مادية لأن مدارك الإنسان وقوى تفكيره كانت مجذوبة إلى الأرض بقوة التماسك العنصري في ترابط ذرات الكون.

تآخي النبوة والعقل جعل آية رسالة محمد ﷺ فكرية عقلية علمية خالدة:

فلما بلغت النبوة مداها في التآخي مع العقل الإنساني - وهو قوة لا سلطان للمادة عليها - وبلغ العقل رشده واستوى تفكيره أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ برسالة كاملة المعالم في أصول العقائد والتعبدات وأنظمة الحياة ختم بها رسالات المرسلين، قامت على دعائم من القواعد والأصول العامة المحكمة جعلها هادية للعقل في مسيرته مع الحياة، يسترشد بها ليستخرج من أصولها أحكام الأحداث والوقائع المتجددة التي لا تتناهى، دون حاجة إلى الوقوف عند نص قد لا يفي بالمقصود.

ومن ثم كانت خصيصة هذه الرسالة الخاتمة في خلودها بخلود الحياة في تآخيها مع العقل الإنساني الذي اكتمل رشده وشب عن طوق المحاكاة والتقليد والتبعية.

ومن هــذه الخصيصة لهذه الرســالة الخاتمة في تآخيها مع العقــل كان لا بد في آيات صدقهــا ، وبراهين حقيتها ، ودلائل إعجازهــا من أن تكون ملائمة لهذا التآخي العقلي ، مناســبة له في منابعه الإدراكية ، هادية له في أســس التشــريع ، مهتدية به فــي تطبيــق الوقائع على تلك الأســس والأصــول ، وعندئذ لم يبــق للإعجاز الحســي وآياته المادية قوة دلالتــه على حقية ما جاءت به من الهدى والخير ، فكانت آيتها العظمى ومعجزتها الكبــرى التي وقع بها التحدي والاســتدلال على صدق حامل أمانتهــا آية عقلية ، علمية ، فكريــة ، يجد فيها كل عقل مجاله الإدراكــي ، ويجد فيها كل عالم طريقه إلــى المعرفة واليقين ، ويجــد فيها الفكــر (المتطور) مجالاً لســبحات أطواره بعيدًا عن الجمود المادي ، ليســتصفي مــن أصولها الحق خالصًا من شوائب الخداع والتضليل .

تلــك هي آيــات الكتاب المبيــن ، القرآن العظيــم ، الجامع لمنــازل الخيــر وجوامع الهــدى والنــور ، الذي تحــدى بذاته وإعجــازه كل عيلم عليم ، وكل عقل محكم حكيم ، وكل فكر غــواص عميــق ، بما جاءت بــه آياته من حقائــق ومعان هادية ، ومقاصد مســتهدفة للحق ، كما تحدّى كل فصيح بليغ ، وكل ذي بيان وبراعة في روعة الإحســان ، بأســلوبه ونظمه وجزالة ألفاظــه ، ونصاعــة جملــه وكلماتــه ، ونســق آياته ، فــكان آية

الصدق على دعوى الرسالة الخالدة ، بما فيه من ألوان الهداية ، فهــو معجزتها الكبــرى وآيتها العظمى التــي كانت به خاتمة الرســالات الإلهية ، فلا رســالة لله تعالى إلى الخلق بعدها ، ولا كتاب ينزل بعد كتابها من الســماء ، وقد صب الله تعالى فيض إحسانه في آيات كتابها ، خالدة لا تنتهي وباقية لا تنفد .

ومــن هنا كانــت فيوضــات الله لا تنقطع ولكنها مســتمرة ســرمدية عن طريق آياتها في كتابها الحكيم المحكم ، فالنظر فيــه ، وتدبر حقائقــه ومعانيه ، ومعرفة هدايتــه ، والغوص على حكمه هي طرائق الإيمان ، وهذه سبيل ممهدة للعقل ، وطريق موطــأة للفكر ، يهتــدي بها الســالكون إلى مشــارع الإيمان ، وهي عامرة بالســائرين فيهــا الذين أقيمت لهــم منائر الحق ، ونصبت لهم معالــم الهداية ، وأنيرت لهم آفاقها ، ليهتدوا بها في دياجير أوهام العلم التجريبي وتخيلاته وتخرصاته وظنونه إلى نور الحق واليقين .

لا تتوقف مســيرته ، ولا تخلو عن الراغبين مشــارعه ، فهو داع مســتجاب ، وهــادٍ خِرِّيــت لا يضل الطريق أبدًا ، ومرشــد لا يمل ولا يعيا ، مشــارعه مفعمة بالواردين ، ومســالكه مليئة بالقاصديــن ، وروّاده قوافلهــم متواصلــة لا تنقطــع ، وداخلــو ســاحته متوافــدون ، لا قوة تدفعهم إليه إلا قــوة الحق فيه ، ولا وسائل تجذبهم إليه إلا وسيلة الرغبة فيه .

وإلى هذه الحقائق والمعاني أشار النبي ﷺ في قوله الجامع:

«ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

وإذا كان القرآن العظيم هو الآية العظمى والمعجزة الكبرى التي وقع بها التحدي للدلالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، ولا يزال هذا التحدي قائمًا به إلى يوم القيامة في كل زمن ومكان وجيل من الناس مهما بلغت الحياة من أطوار التقدم العلمي، لما فيه من أبدية الهداية التي لا تنتهي كما انتهت الآيات الحسية المادية التي أوتيها رسل الله تعالى برهانًا على صدق دعواهم في رسالاتهم - فقد أوتي نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية وعجائب خرق نواميس الترابط المادي في عناصر الكون ما لم يؤت مثله كيفًا وكمًا نبي من الأنبياء عليهم السلام.

وجميع ما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية التي لم تدخل في إطار التحدي بها ثابتة مروية بروايات مسندة، وهي وإن اختلفت في أسانيدها قوة وصحة لكنها في

جملتها بالغة مبلغ التواتر المعنوي القاطع الذي لا يستطيع أن يجادل في مجموعه مجادل أو ينكره منكر.

من هذه الآيات آية انشقاق القمر:

بيد أن منها آحادًا أثبتت بأصح الأسانيد التي لا تقبل الطعن والمعارضة، وفي هذه الآحاد ما أشار إليه القرآن إشارة واضحة يجب الإيمان بظاهره، وليس هنا صارف يقضي بصرفها عن ظاهرها سوى تحكم عقول بعض (العقلانيين) الذين يؤلهون العقل، ولا يقفون به عند مخلوقيته التي تعزله عن التحكم المطلق في ملكوت الله تعالى، وذلك كآية انشقاق القمر، فقد أثبتها القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى:

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾

(القمر: ١)

وقد جاءت بها أحاديث مسندة من أصح الصحيح بروايات الثقات الضابطين المأمونين في إيمانهم وديانتهم، وهي مروية عن عدد من الصحابة يبلغ في جملته حدّ التواتر، فلا وجه لإنكارها سوى التعبد للعقل ونواميس الترابط في عناصر الكون، وهذه النواميس مخلوقة لله -تعالى- يفعل بها ما يشاء.

آية نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ:

وفي هذه الآحاد من الأحاديث ما لم يرد له ذكر في القرآن، ولكنه ثبت وقوعه بصحيح الأسانيد ثبوتًا لا يحتمل التأويل ولا يعتريه الشك وذلك:

أولًا ـ كأحاديث نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ على مرأى ومشهد من الصحابة في مرات مختلفة، وقد شرب منه العدد الكثير الذي لم تجر به عادة في زمن من الأزمان، ولا وقع مثله لأحد من الرسل والأنبياء، وتطهروا منه وملئوا أوعيتهم وإداواتهم وأوانيهم وقربهم، وشاهده حديث قتادة عن أنس عند الشيخين، قال أنس: أتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاث مئة أو زهاء ثلاث مئة.

وحديث جابر عند البخاري في الحديبية، قال جابر: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ «ما لكم؟» قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك، قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا، قال الراوي عن جابر، فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال لو

كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة. وفي هذه الآية، آية نبع الماء من أصابعه ﷺ حديث أبي قتادة عند مسلم وحديث معاذ عند مسلم أيضًا وفي بعضها طول لا يحتاج لذكره.

ويعلّق القاضي عياض على أحاديث هذه القصة فيقول: هذه القصة رواها الثقات عند الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العسكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته.

آية تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الكثير:

ثانيًا ـ ومن هذه الآيات المعجزة الثابتة بأصح الأسانيد تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الذي يستحيل عادة أن يشبع مثله بمثله، وشاهده حديث أم سليم وأبي طلحة عن أنس عند الشيخين، وهو متعدد الطرق والسياق.

روى الشيخان عن أنس قال: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها فلفت الخبز ببعضه ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ. قال أنس: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، قال

«بطعام؟» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي يا أم سليم ما عندك» فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ وعصرت أم سليم عكة فأَدَمَتْهُ، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا.

وحديث جابر في حفر الخندق عند الشيخين أيضًا، قال جابر: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا[٣٢] شديدًا، فأخرجت إليَّ جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير،

(٣٢) الخمص: الهزال. (المجلة).

وفرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله ذحبنا بهيمة لنا وطحنَّا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سؤرًا فحي هلا بكم» فقال رسول الله ﷺ: «لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء» فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت، فأخرجت له عجينها فبصق فيه وبارك، ثم عمد وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق، وبارك، ثم قال: «ادعي خابزة فلتخبز معك، وقدمي من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف.

قال جابر: فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

آية حنين الجذع:

ثالثًا ـ روايات حنين الجذع الذي كان يخطب إليه رسول الله ﷺ قبل أن يُعمل له المنبر، روى الشيخان عن جابر قال: كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار، حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه، قال القاضي عياض: وحديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر

به متواتر، قال الشهاب الخفاجي، في بيان تواتره: لكثرة طرقه الصحيحة ونقل جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب، وقد رواه أصحاب الصحيح مسندًا كالبخاري ومسلم، وابن حبان، وابن خزيمة، وما وصل إلى مثلهم بطرق متعددة صحيحة يكون متواترًا حقيقة لإجماع من بعدهم على صحتها، كما قاله ابن حجر ردًا على ابن الصلاح في دعواه أن التواتر لا يكاد يوجد، ولعل ابن الصلاح يقصد التواتر اللفظي، أما التواتر المعنوي فهو محقق الوجود في السنة، متعدد الوقائع.

وقال السهيلي في روضه: حديث خوار الجذع وحنينه منقول بالتواتر، لكثرة من شاهد خواره، وكلهم قد نقل ذلك أو سمعه من غيره فلم ينكره أحد، قال عياض: ورواه من الصحابة بضعة عشر منهم: أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة، كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث، وبعضهم يطنب في حديثه وبعضهم يوجز القول، ففي حديث أنس أن النبي ﷺ لما قعد على المنبر خار الجذع حتى ارتج المسجد لخواره، وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت، وفي رواية أبيّ بن

كعب فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر، والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزنًا على رسول الله ﷺ» ثم أمر به نبي الله ﷺ فدفن تحت المنبر. قال البيهقي عن الإمام الشافعي: ما أعطى الله نبيًا ما أعطى محمدا ﷺ، فقيل له: أعطى عيسى إحياء الموتى، فقال أعطى محمدًا الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حتى هيئ له المنبر، فلما هيئ له المنبر حن الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك.

استجابة الجمادات لدعائه ﷺ لها وإتيانها له:

رابعًا ـ أحاديث استجابة الجمادات لدعائه وإتيانها له، وشاهده استجابة الشجرة له حين دعاها لتستره وقد أراد قضاء حاجته، فجاءت إليه تخد الأرض ثم رجعت إلى مكانها كما كانت، روى مسلم عن جابر قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺفلم ير شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال «انقادي عليّ

بـإذن الله» فانقـادت معـه كذلك حتـى إذا كان بالمنصف مما بينهما لاءم بينهما يعني جمعهما فقال: «التئما عليّ بإذن الله» فالتأمتا، قال جابر، فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي، فيبتعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة فإذا برسول الله ﷺ مقبلًا، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق.

وأخرج البغوي عن ابن أحمد، عن منيع، عن عبدالله بن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فدنا منه أعرابي، فقال له: «يـا أعرابـي أين تريد؟» قال: إلى أهلي: قـال النبي ﷺ: «هل لـك إلى خيـر؟» قال: وما هو؟ قـال: «تشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له وأن محمدًا عبده ورسوله» قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: «هذه السـمرة» وهي بشاطئ الوادي، فأقبلـت تخد الأرض حتى وقفت بين يديه، فاستشـهدها ثلاثًا فشـهدت ثم رجعت إلى مكانها. وهـذا الحديث رواه الدارمي والبيهقي والبزار.

وفـي حديث بريدة بن الحصيب عند البزار مسـندًا: سـأل أعرابـي النبي ﷺ آية، فقال له: «قل لتلك الشـجرة: رسـول الله يدعوك، فمالت الشـجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها

مغبـرة حتى وقفت بين يدي رسـول الله ﷺ، فقالت: السـلام عليك يا رسـول الله، قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت، فدلت عروقها فاستـوت، فقـال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك، قال رسول الله ﷺ: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسـجد لزوجها» قال الأعرابي: ائذن لي أقبل يديك ورجليك، فأذن له.

آيات إبراء المرضى ورد ما انفصل من أعضاء الإنسان:

خامسًـا ـ أحاديث إبراء المرضـى ورد ما انفصل من أعضاء الإنسـان مما لا يمكـن إعادته في العادة إلـى مكانه صحيحًا، وشـاهده رده ﷺ عين قتادة بن النعمان حين أصيبت في غزوة أحد بسـهم أسالها على خده، وهو يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فأتـى بها رسـول الله، فقال: يا رسـول الله إن لي امـرأة أحبها وأخشى إن رأتني أن تقذرني، فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردها إلى موضعها، وقال: «اللهم اكسـه جمالا» وفي رواية: أنه أتى بهـا النبي ﷺ، فقال له ﷺ: «ما هذا يا قتادة؟» فقال: هذا ما ترى يا رسـول الله، فقال له رسـول الله ﷺ: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها ودعوت الله لك، فلم تفقد منها شـيئًا» فقال: يا رسـول الله إن الجنة أجر جزيل، وعطاء جليل جميل، ولكني أكره أن أعير بالعور، فردها إليَّ واسـأل الله لي

الجنة، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه، وأحدهما نظرًا، ولا ترمد إذا رمدت الأخرى. وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن قتادة قال: كنت يوم أحد أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهمًا ندرت منه حدقتي، فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه، فقال: «اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، واجعلها أحسن عينيه وأحدَّهما».

وهذه القصة رويت موصولة عند ابن عدي والبيهقي، ومرسلة عند ابن إسحاق، ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة فهي من رواية الأكابر عن الأصاغر، ويروى أن حفيد قتادة عاصم بن عمر بن قتادة وفد على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: من أنت؟ فأجاب بديهة:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه
فردت بكف المصطفى أيما رد
فعادت كما كانت لأول أمرها
فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر بن عبد العزيز:

تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

حديث الأعمى الذي لقنه رسول الله ﷺ دعاء لرد بصره:

وروى الترمذي، والحاكم والبيهقي وصححوه، والنسائي عن عثمان بن حنيف: أن أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله لي أن يكشف عن بصري، فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفعه فيّ» قال عثمان بن حنيف، فرجع الأعمى وقد كشف الله عن بصره.

قال الخفاجي في شرح الشفاء: وهذا الحديث مسند صحيح، أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وكان ابن حنيف وبنوه يعلمونه الناس، وقد أخرجه البرهان الحلبي من طرق متعددة فلم يبق فيه شبهة فاحفظه.

وفي إيراد روايات هذه الأحاديث القاطعة -في دلالة مجموعها على ما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية كثير منوع باهر- طول لا تقتضيه ضرورة، ويكفي فيه الشاهد والمثل، وهي مروية مشهورة في كتب الأئمة، وإنكارها مكابرة.

التحدي وقع قطعًا بالقرآن العظيم:

غير أن هذه الآيات المعجزة والعجائب الخارقة للعادة على كثرتها وتنوعها، وصحة وقوع حوادثها لم يقع بها

التحدي العام لإثبات دعوى الرسالة، كما وقع بالقرآن الكريم الـذي تحدى العالمين، فـكان هو بذاته ونصـه موطن الدعوة والشـاهد على صدقها شـهادة بلغت مبلـغ اليقين، فقد أهاب القـرآن الكريـم بغطارفة المشـركين الوثنييـن، وكانوا أرفع البشر فصاحة وأبلغهم بيانًا، وأروعهم بلاغة، وأبرعهم منطقًا وأذربهم ألسـنة، وأهداهـم إلى طريق البراعة البيانية سـبيلًا، وكانـوا يدلون علـى الناس بصفاء قرائحهـم وحدة مداركهم، فتحداهـم أن يأتـوا بحديث مثلـه، آية فما فوقهـا، وقد تدرج معهم التحدي بعشر سـور من مثله، ثم إلى سورة واحدة، ولم يتركهـم بعد هذه المراتب المتدرجة حتـى غمز قناتهم وأذل اسـتكبارهم، وسـخر بغرورهم، وهزأ بتنفجهم وغطرستهم، فأنبأهـم وهـو يتحداهم بأنهم عاجزون عـن معارضته عجزًا لا تواتيهـم فيه قـدرة على هـذه المعارضة في آية صـور التحدي المتدرج فقال لهم:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٣، ٢٤)

ثم أيأسـهم بمـا وخز عنجهيتهـم وخزًا موجعًـا لا أمل من ورائه قط في المعارضة، فقال الله عز شأنه لرسوله محمد ﷺ:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

وذكر الجن في هذه الآية بيان لبلوغ التحدي والتعجيز غاية يقف عندها غرور التفاصح الأجوف ذليلًا خزيان لا يبين.

فالآيـات الحسـية الماديـة التـي أعطيها نبينـا محمد ﷺ كانت تشـريفًا وتكريمًا له، وإشارة بمنزلته عند ربه، وتنبيهًا للغافليـن الذيـن لـم تتبـوأ عقولهـم مكانتهـا من الرشـد في الإدراك، حتى تتكامل له ﷺ دعائم تبليغ رسـالته في عمومها وخلودهـا ليجـد فيها وفي وسـائل عرضها كل عقل إنسـاني طلبتَـه الملائمة لاسـتعداده، حتـى إذا نهض مـن كبوة جهله واستشـرف آفـاق العلم والمعرفـة وجد أمامه القـرآن العظيم كتابًا محكمًا حكيمًا، صدوق الدلالة، عميق البرهنة، سـيال الفكـرة، منطلـق الحقائق، غزيـر المعاني، لطيـف المأخذ، خالد التحدي، أبدي الإعجاز بهدايته، مهيمنًا على كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون من آيات قاهرة على مثلها يؤمن البشر

﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت : ٤٢)

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(فصلت : ٣ ، ٤)

الفهرس